الفصل السابع

كتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأيوبية فى بلاد الشام

قدمنا فى معظم أحداث الفصول السابقة عرضا لجزء كبير من كتاب المؤرخ ابن أبى طى الحلبى الذى تناول فيه تاريخ السيرة الصلاحية، ونواصل فى هذا الفصل ما تناوله هذا الكتاب عن تاريخ الدولة الأيوبية فى بلاد الشام فى عهد السلطان صلاح الدين، وقد اعتمدنا عليه فى معظم أحداث الفصل، كما أمدنا «المقريزي» فى كتابه «المقفى الكبير» بمعلومة أوردها عن ابن أبى طى، وتناول فيها ما ذكره عن بشارة «القاضى محيى الدين بن زكى الدين» لصلاح الدين بقرب فتح القدس بعد سيطرته على حلب فى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م.

وقد أبرزت كتابات ابن أبى طى فى هذا الفصل الجهود التى قام بها السلطان صلاح الدين حتى صار للدولة الأيوبية شأن كبير، وأخذت ما كان للدولة الأتابكية من قوة وسلطان، واستطاع بعد ذلك أن يحقق الكثير من الإنجازات التى لم يتمكن غيره من تحقيقها، واستغرق ذلك منه زمنا طويلا، وقد أتاحت لنا الكتابات التى وصلتنا من تاريخ ابن أبى طى معرفة جانب من هذه الأحداث منذ عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م حتى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م.

ووصلنا أيضا من تاريخ الدولة الأيوبية بعض الأحداث المتعلقة بفترة حكم «الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين»، وأمدنا بها «عز الدين بن شداد» فى كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة»، عن كتاب «عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر» لابن أبى طى.

وقد عرضنا كتابات ابن أبى طى عن الدولة الأيوبية فى الشام على حسب التسلسل

الحولى الذى ذكره، واشتملت أحداث كل عام على العديد من الموضوعات المختلفة.

أولا – عهد السلطان صلاح الدين (٥٧٠ ـ ٥٨٣ هـ / ١١٧٤ ـ ١١٨٧ م):

شهدت الدولة الأتابكية فى الشام بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وولاية ابنه «الملك الصالح إسماعيل» ـ الذى كان لا يزال طفلا صغيرا ـ صراعا وتنافسا كبيرا بين أمراء نور الدين محمود فى دمشق وحلب من أجل الوصاية على ولده وتدبير أمور دولته، ولقد استشعر صلاح الدين الخطر من نتائج هذا الصراع الوخيمة على وحدة الدولة الإسلامية التى كانت الدولة الأتابكية قد حققت جزءا كبيرا منها فقرر أن يكون له دور فى الحفاظ على هذه الوحدة وتدعيمها لتقف قوية فى مواجهة الإمارات الصليبية فى الشام. ولهذا توجه صلاح الدين من مصر إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وأثمرت جهوده خلال ثلاثة عشر عاما فى إقامة جبهة إسلامية موحدة، ونجح بقيادته لها فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ فى إعادة الكثير من البلاد الإسلامية التى كانت قد خضعت للحكم الصليبى لمدة قاربت قرنا من الزمان. وقد أمدنا ابن أبى طى الحلبى فيما وصلنا من كتاباته بتفاصيل كثير من هذه الأحداث وعرض فى مقدمتها:

اضطراب أحوال الدولة الأتابكية بعد وفاة نور الدين محمود (٥٦٩ ـ ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م):

توفى نور الدين محمود فى دمشق فى شوال عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وخلفه فى الحكم من بعده ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، فأطاعه أمراء والده وقام الأمير «شمس الدين بن المقدم» بتدبير دولته، و تولى له أيضا ـ حسب رواية العماد الأصفهانى ـ قيادة العساكر، وقرر الأمير شمس الدين بن المقدم منذ ذلك الوقت إبعاد صلاح الدين فى مصر عن مجريات الأمور فى بلاد الشام، خشية استقلاله بالأمر دونهم فى المستقبل، وقد ظهر موقفه هذا خلال الحوار الذى أورده «ابن الأثير» بينه وبين القاضى

«كمال الدين الشهرزوري»[١].

وقد عرض ابن أبى طى فى روايته أيضا أحوال الملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده، واتفق فى معظم ما ذكره مع العماد الأصفهانى وابن الأثير، وأبرزت روايته سياسة الأمراء العدائية تجاه صلاح الدين فى مصر، فقال: «لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على أن يكونوا فى خدمة الملك الصالح، ابن نور الدين، وكان يومئذ صبيا، و{حلفوا له}[٢] على منابذة الملك الناصر و قبض أصحابه الذين بالشام، ومصالحه الفرنج {و جعلوا}[٣] «ابن المقدم شمس الدين» مقدم العساكر؛ وتم ذلك و استقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له»[٤].

ولم تستقر الأحوال فى الدولة الأتابكية عند هذا الحد، حيث واجهت بعد ذلك مملكة بيت المقدس الصليبية التى لم تضيع فرصة وفاة نور الدين محمود، فقامت قواتها

بحصار قلعة بانياس، التى تقع - كما ذكر «ابن الأثير» - ضمن أعمال دمشق، فراسلهم شمس الدين ابن المقدم، وعقد هدنة معهم[٥]، وقد أوضح ابن أبى طى فى روايته لهذا الحدث أن الغزو الصليبى كان يهدف الوصول إلى مدينة دمشق، ولهذا اتجهت قوات

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٦ (رواية العماد الأصفهاني) . وانظر أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١ - ٣ .

(٢) في طبعة : « دار الجيل » . « و أجمعوا » . وفي رأينا أن هذه الطبعة هي الأصح ، لأن مجاهرة الأمراء أمام الملك الصالح بمعاداة صلاح الدين أمرا مبالغ فيه لصبغته بالصبغة الرسمية ، ونكن من المتوقع أن « يجمعوا » فيما بينهم علي معاداته . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٣) .

(٣) في طبعة : « دار الجيل » . « علي يد » . وفي رأينا أن هذه الطبعة هي الأصح لأن مصالحة الصليبيين تمت « علي يد » ابن المقدم . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٣) .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٤ (طبعة دار الكتب) .

(٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ١٦٠ ؛ العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٣٣ (اختصار البنداري) ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧ .

شمس الدين ابن المقدم إلى بانياس لحماية دمشق، وقد انفرد ابن أبى طى بهذا الإيضاح فقال: «وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس فى عساكر نور الدين[١]، وراسل الفرنج فى الهدنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها إليهم. وتم أمر الصلح وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدم إلى دمشق»[٢].

وقد استنكر صلاح الدين عقد هذه الهدنة، و أوضح المؤرخ «العماد الأصفهاني» موقفه منها، ولاحظنا أن كتاباته كانت من أهم الكتابات التى اعتمد عليها كثير من المؤرخين من بعده[٣]، ومن بينهم ابن أبى طى، الذى عرض نفس أسلوب روايته؛ إلى حد أن تطابق معه فى بعض الكلمات فقال فى شرح ذلك: «واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل ، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم. فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه»[٤].

ومن هؤلاء الأمراء الذين راسلهم صلاح الدين الأمير «شرف الدين ابن أبى عصرون»، أرسل إليه يبلغه رفضه عقد هذه الهدنة، وقد أورد المؤرخ «أبو شامة» عدة جمل من هذه الرسالة نقلا عن العماد الأصفهانى، كما عرض أيضا جزءا كبيرا من نفس الرسالة نقلا عن ابن أبى طى[٥]. وهذا يوضح لنا أن العماد الأصفهانى كان المصدر الأول الذى أورد نص هذه الرسالة، ومن الراجح أن ابن أبى طى أخذها عنه بعد ذلك.

---

(١) أورد ابن كثير نفس رأي ابن أبي طي في هذا الجزء . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٠٩) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٤ .

(٣) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٨ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٩ (رواية العماد الأصفهاني) ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٠٩ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٩ (رواية العماد) ، ص٥٩٤ - ٥٩٥ (رواية ابن أبي طي) .

بدأ صلاح الدين الرسالة بتسجيل اعتراضه على عقد الهدنة من جانب طرف واحد من البلاد الخاضعة لسلطة الدولة الأتابكية، وأثر ذلك على وحدة باقي بلاد الدولة. قال ابن أبي طي : «وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون:» ورد الخبر بصلح بين الفرنج و الدمشقيين وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سلك هذا القصد و العدو لها واحد ؛ وصرف مال الله الذي أعد لمغنم الطاعة، ومصلحة الجماعة، في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله و لصالحي الأمة، وكان مذخورا لكشف الغمة، فصار عَوْنا ؛ وأن اسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة،

دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السلم السبب و الذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورود والصدر، وإن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدو من بقيّة الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرّقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد»[1].

ثم أشار صلاح الدين بعد ذلك في ختام رسالته إلى ابن أبي عصرون إلى الرسالة التي كان أرسلها إلى الأمير «شمس الدين علي» - وهو أكبر أخوة «بنو الداية» ولاة الأمور في حلب - وفيها أبلغه بعواقب عقد هذه الهدنة. قال ابن أبي طي: «فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه {أمر}[2] ربما عُجز {فيه}[3] عن الاستدراك، وأن العدو طالب لا يغفل، وجادٌ لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصة، مجدٌّ لا يميل إلى الرخصة. فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار الله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير. وقد منعنا عساكرنا

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ،ق ٢ ، ص٥٩٤ - ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) .

(٢) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) ؛ ج ١ ، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجيل).

(٣) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) ؛ ج ١ ، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجيل).

أن تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية «حارم» بالمال الذى قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته ؛ فإنه مادام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه»[١].

ثم تناول ابن أبى طى بعد عرضه أحوال دمشق ومصر والعلاقات بينهما بعد وفاة نور الدين محمود تطور الأمور فى حلب.

كان الأمير «شمس الدين على بن الداية»، وهو أكبر بنو الداية، يقيم ـ كما ذكر العماد الأصفهانى ـ فى قلعة حلب، وكانت بأيدى أخوته معظم الحصون والمعاقل حول حلب[٢]. وقد أورد ابن أبى طى ما ذكره العماد عن أحوال بنى الداية، وأضاف تفاصيل أخرى عنهم وعن والى قلعة حلب فقال: «وكان متولى قلعة حلب» شاذبخت الخادم النوري»[٣]، وكان «شمس الدين علي»، أخى «مجد الدين ابن الداية»، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه « بدر الدين حسن»[٤] الشحنكية ؛ وكان بيده ويد أخوته جميع المعاقل التى حول

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٧ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠ ـ ١١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦ ، ٩

(٣) هو جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي : عتقه نور الدين محمود ، وولاه قلعة حلب ، لذا كان حريصا بعد وفاته في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م علي الحفاظ علي مُلك ولده الملك الصالح إسماعيل في حلب ، وظهر ذلك من كتمانه خبر الوفاة عن كبار الأمراء والأعيان في حلب حتى حلفوا له علي ولائهم للملك الصالح . ومن الآثار التي تنسب إليه بحلب بناءه مدرسة لأتباع مذهب أبي حنيفة. (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩ ـ ١٠) .

(٤) بدر الدين حسن : أحد أخوة مجد الدين ابن الداية ـ شقيق نور الدين محمود في الرضاعة ـ اشتمل إقطاعه في عهد نور الدين محمود علي عدة بلاد مثل : « حارم » و « إعزاز » و « عين تاب » ، كما كان يتولى الشرطة في حلب . (العماد الأصفهاني : سنا البرق، ص ٣٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٩) .

حلب[١]»[٢].

ثم عرض ابن أبى طى تفاصيل الاضطرابات التى وقعت بين السنة و الشيعة فى حلب على أثر وصول خبر وفاة نور الدين محمود، وتعد روايته هذه من الروايات المهمة التى انفرد فيها بذكر أخبار حلب فقال: «فلما بلغ «عليا» موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان «مُقْعَدا»[٣]، واضطرب البلد، ثم سكنه

«ابن الخشاب»[٤]، وكوتب ابن الخشاب من دمشق بحفظ البلد. وعول أولاد الداية على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين وأنفذوا خلف «أبى الفضل بن الخشاب»، فامتنع من الصعود إليهم و ترددت بينهم الرسالة ؛ وتحزب الناس بحلب،{أهل}[٥] السُنة مع بنى الداية والشيعة مع ابن الخشاب ؛ وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين و أهل الحاضرة وزحفوا إلى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابن الخشاب[٦]»[٧].

وقد وصلت أخبار هذه الاضطرابات إلى الأمراء فى دمشق، فقرروا - كما ذكر العماد

---

(١) اتفق ابن العديم مع ابن أبي طي في معظم ما أورده من تفاصيل في هذا الجزء . (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٠ - ١١) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ .

(٣) كان شمس الدين علي مريضا بالنقرس . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤) .

(٤) هو القاضي أبو الفضل ابن الخشاب : كان رئيس حلب ، ومقدم الشيعة بها ، قُتل في حلب في المحرم عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م . (العماد : سنا البرق ، ص ٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣١ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٩) .

(٥) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) ؛ ج ١ ، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجيل)) .

(٦) اتفق ابن العديم مع ابن أبي طي فيما ذكره عن اضطراب أحوال حلب ، و أضاف « ابن العديم » تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع . (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٥ - ١٧) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب) .

الأصفهاني - إرسال الملك الصالح إسماعيل إلى حلب لحفظ الأمور بها، فسار معه جماعة من الأمراء فى الثالث والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م[١]، وقد ذكر هذه الأحداث أيضا ابن أبى طى واتفق فيها مع العماد الأصفهانى فقال: «واتصلت هذه الأخبار بمن فى دمشق فأخذوا الملك الصالح و ساروا إلى حلب، فى الثالث والعشرين من ذى الحجة، و سار مع الملك الصالح «سعد الدين كمشتكين»[٢]

و«جُرديك» و«إسماعيل الخازن»، و«سابق الدين عثمان ابن الداية»، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. وساروا إلى حلب وخرج الناس إلى لقائهم»[٣].

وبعد وصول الملك الصالح إلى حلب، قرر من معه من الأمراء إنهاء الاضطرابات التى وقعت فى البلد بين بنى الداية وأنصارهم من السنّة، و القاضى ابن الخشاب ومن انضم إليه من الشيعة، فقرروا إبعاد بنى الداية أولا، ثم دبروا قتل القاضى ابن الخشاب، وقد أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل مهمة عن هذا الموضوع انفرد بذكرها بين كثير من المؤرخين[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣ ـ ١٤؛ أبو شامة : المصدر السابق، ص ٥٩١ ـ ٥٩٢ (رواية العماد)) .

(٢) هو سعد الدين كمشتكين : ولاه نور الدين محمود قلعة الموصل نيابة عنه، وبعد وفاة نور الدين محمود ترك الموصل واتجه إلي حلب، ثم سار إلي دمشق واتفق مع الأمراء هناك علي نقل الملك الصالح إلي حلب، وبعد وصوله إليها انفرد بتدبير مُلك الملك الصالح إسماعيل، وتوفي في عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ ـ ٧٧ م . (ابن الأثير : الكامل، ص ١٤٣ ؛ أبو شامة : الروضتين، ص ٥٩٢ (رواية العماد الأصفهاني)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ٥ ،١٠؛ ابن كثير : البداية، ج ١٢، ص ٨٠٩ ـ ٨١٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦ .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق، ص ٧٤ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١ ؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ٤٩ ؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠ .

قال ابن أبى طى عن موقف الأمراء فى حلب من بنى الداية: «وكان «حسن» قد رتب فى تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح و يصلبهم ؛ فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدم «جرديك» وأخذ بيده، و شتمه و جذبه، فأركبه خلفه رديفا، و قبُض «سابق الدين» أخوه فى الحال، و تُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، و احتيط عليهم و ساروا مجدّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة و صعدوا إليها، و قبضوا على «شمس الدين على بن الداية» من فراشه، و حمل إلى بين يدى الملك الصالح ؛ فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف «بالجفنية»، فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه، فانشقت جبهته. ثم صفّدوا جميعا و حبسوا فى جُب القلعة، و قبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعا من القلعة»[١].

قال ابن أبى طى عن موقف الأمراء من القاضى ابن الخشاب: «ففى أولها (عام ٥٧٠ هـ) ضمن «القطب ابن العجمى {و}[٢] أبو صالح»[٣] و«ابن أمين الدولة»[٤] لجُرديك إن قتل ابن الخشاب ردّوا عليه جميع ما نهب له فى دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أمانا لابن الخشاب، ونودى عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة[٥]»[٦].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) إضافة في « طبعة دار الكتب » . ونري أن حذف حرف الواو في« طبعة دار الجيل » أدق لأن « أبا صالح » تكمل اسم « ابن العجمي » وليس اسما آخر . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ (طبعة دار الكتب) ؛ ج ١ ، ص ٢٣٤ (طبعة دار الجيل)) .

(٣) هو شهاب الدين أبو صالح عبد الرحيم بن العجمي : تولي الوزارة للملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م .واستمر بها حتى قتل في حلب في عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م . (ابن الأثير: الكامل ، ج ٩،ص١٤٣؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣، ص ١٠) .

(٤) هو الشيخ أبو يعلي . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ١٥) .

(٥) اتفق ابن العديم مع ما أورده ابن أبي طي عن تفاصيل مقتل القاضي ابن الخشاب . (المصدر نفسه ، ص ١٨) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ .

وبعد استقرار الأحوال فى حلب، انتقل المؤرخ «العماد الكاتب الأصفهاني» إلى الموصل للعمل فى خدمة واليها «سيف الدين غازي»[١]، وقد سجل العماد فى كتابه تطورات الأمور فى الموصل[٢]، وأصبحت كتاباته عن هذه الأحداث مصدرا مهما لمعاصرته لها ؛ ولأنه كان أحد شهود العيان بها، ولهذا اعتمد ابن أبى طى على كتاباته وأوردها على لسانه و بنفس أسلوبه، فقال عن وصول العماد إلى الموصل: «ويقى الملك الصالح فى قلعة حلب، ومضى «العماد الكاتب» إلى الموصل. «قال»[٣]: وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حد الفرات»[٤]

ثم أورد ابن أبى طى ما ذكره العماد الأصفهانى عن وصول «ابن العجمي» - وزير الملك الصالح إسماعيل - إلى الموصل، وأوضح أن مهامه تركزت أولا: فى الإصلاح بين الملك الصالح وابن عمه الملك سيف الدين غازى الذى قام بالاستيلاء على معظم أملاك الملك الصالح فى منطقة الجزيرة بعد وفاة والده،ثانيا:مناقشة مصير بنى الداية[٥]، وقد أورد ابن أبى طى ذلك على لسان العماد فقال: «و مضى إليه ابن العجمى للإصلاح، فأصلح بين {ابنى العم}[٦]، وعلق رهن أخوة مجد الدين فى الاعتقال، وضيّقوا عليهم فى القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرهون، إلى أن غصبوا دورهم، و خربوا معمورهم»[٧].

---

(١) هو سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي : تولي الموصل بعد وفاة والده في عام٥٦٥هـ/ ١١٧٠م،وبعد وفاة نور الدين محمود في عام٥٦٩هـ/ ١١٧٤م استولي علي معظم بلاد الجزيرة،وتوفي في عام٥٧٦هـ/ ١١٨٠ م . (النويري:نهاية الأرب،ج٢٧،ص١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٣) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣) المتحدث هنا « العماد الأصفهاني » .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٦) في طبعة « دار الجيل» . « ابن العجمي ». (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ (طبعة دار الكتب) .

ثم أوضح العماد الأصفهانى تطور أحوال «الموفق ابن القيسراني» - وزير نور الدين محمود السابق[١] - وموقفه من مجريات الأمور فى دمشق وحلب ، وأخذ عنه ابن أبى طى هذا الإيضاح وأورده أيضا على لسان العماد فقال: «وكان الموفق خالد ابن القيسرانى قد وصل، ونحن بدمشق، من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم»[٢].

هذا بالنسبة للأحوال فى دمشق وحلب والموصل، أما بالنسبة لموقف صلاح الدين فى مصر مما حدث فى حلب مع بنى الداية، فقد أوضح العماد الأصفهانى أنه عندما بلغه أمرهم استاء لما حدث معهم، و أعلن عن رغبته فى تدبير أمور الملك الصالح إسماعيل، خشية منه على وحدة بلاد الدولة الأتابكية فى الشام، وأعلن عن رغبته هذه فى رسالة إلى الأمير «شمس الدين ابن المقدم» فى دمشق[٣]. وقد أورد ابن أبى طى نفس رواية العماد الأصفهانى عن هذا الموضوع، وتطابقت روايته معه فى بعض الكلمات، مما يشير إلى أن اعتماده عليه لازال مستمرا فقال: «فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال: أنا أحق برعى العهود، والسّعى المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، و ضاقت المناهج المتسعة، و انفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر فى بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف {اجترءوا على أعضاء}[٤] الدولة و أركانها، بل أهلها و إخوانها، وأنه يلزمه أمرهم و أمرها، ويضره ضرهم و ضرها»[٥].

فتلقى صلاح الدين ردا من الأمير شمس الدين ابن المقدم، اتهمه فيه بأنه يخطط للاستيلاء على مقاليد الأمور دونهم. وقد أورد العماد الأصفهانى نص هذه الرسالة،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٦ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » . « اجتروا علي أعضاد » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ (طبعة دار الكتب) .

وكذلك رد صلاح الدين عليها[١]، وتطابقت كتابات ابن أبى طى هنا أيضا معه، فقال: «فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: «لا يقال عنك إنك طمعت فى بيت مَنْ غرسك،وربّاك وأسّسك، وأضفي مشربك، و أضفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر وفى دسته أجلسك، فما يليق {بمالك}[٢]، ومحاسن أخلاقك وخلالك غير فضلك و أفضالك . فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلى: «إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكى أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله و فرعه، ودفع ضره وجلب نفعه ؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة وبالجملة إنا فى واد، والظّانّون بنا ظن السوء فى واد، ولنا من الصلاّح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاّح إنكِ قادح، ولمن ألقى السلاح إنك جارح»[٣].

هكذا كانت أحوال الدولة الأتابكية بعد وفاة نور الدين محمود كما وصفها المؤرخ ابن أبى طى فيما وصلنا من كتاباته عنها، و قد اتضح لنا من خلال مقارنة كتاباته مع غيره من المؤرخين اعتماده فى كثير من هذه الأحداث على كتابات العماد الأصفهانى، خاصة ما أورده عن العلاقات بين صلاح الدين في مصر والأمراء فى دمشق ومراسلاته معهم، وكان ابن أبى طى قد صرح باعتماده على كتاباته عند انتقال العماد إلى الموصل، وأخذ عنه الأحداث التى كان شاهدا عيان لها.

اهتم ابن أبى طى أيضا فى هذه الموضوع بذكر الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والأمراء فى دمشق، وانفرد بجزء كبير من رسالة صلاحُ الدين إلى شرف الدين ابن أبى عصرون. كما أمدنا ببعض المعلومات المهمة عن الأحوال فى حلب، واحتلت كتاباته عنها موقع الصدارة بين من لحقه من المؤرخين الذين أفردوا كتبا لدراسة تاريخ حلب، خاصة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « بحالك » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨ . (طبعة دار الكتب) .

ما أورده عن الاضطرابات بين السنّة والشيعة، وأحداث القبض على بنى الداية.

توسعات صلاح الدين فى الشام (٥٧٠ ـ ٥٧٩ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٨٣ م):

أوضحنا فيما سبق ما ذكره ابن أبى طى عن ردود فعل صلاح الدين فى مصر تجاه ما حدث من الأمراء النورية فى دمشق وحلب بعد وفاة نور الدين محمود، وكيف كان رأيه مخالفا لمعظم القرارات التى اتخذوها، لما كان لها من أثر على تفكك وحدة الدولة الأتابكية؛ ولهذا قرر صلاح الدين أن يقوم بدور لحماية أملاك الملك الصالح إسماعيل، فخرج من مصر إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٧٥ م، وشهد هذا العام الكثير من انتصاراته هناك وبسط سيطرته على العديد من المدن، وكان أولها:

مدينة دمشق:

وقد شجعه على ذلك وصول رسل بعض الأمراء فى الشام لدعوته. فذكر «العماد الأصفهاني» أنه جاءته رسل أمير بلدة «بُصْرَي»، وأيضا راسله الأمير «شمس الدين ابن المقدم» أمير دمشق وأظهر رغبته فى التنازل عنها له. وقد أرجع «ابن الأثير» سبب ذلك إلى خشية ابن المقدم من وقوع دمشق فى أيدى «سعد الدين كمشتكين» القائم بتدبير دولة الملك الصالح إسماعيل فى حلب هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خوفا من أن يصير له مثلما حدث مع بنى الداية فى حلب[1].

أما بالنسبة لابن أبى طى فقد أورد فى روايته الآراء التى قيلت حول الأسباب التى دفعت صلاح الدين نحو دمشق، وأوضح أن معظمها كان يتعلق بشخصية «شمس الدين ابن المقدم» أمير دمشق ونتائج سياسته. فقال: «بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١. وانظر أيضا: ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩ ـ ٢٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٣.

الصالح، وهو كان السبب فى خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه»[١].

ولعل صلاح الدين حمّل ابن المقدم مسئولية ضياع معظم منطقة «الجزيرة الفراتية» (المعروفة بالبلاد الشرقية) من أملاك الملك الصالح إسماعيل، لأنه رفض تدخله فى أمور الملك الصالح كما ذكرنا من قبل. حيث أوضح «ابن الأثير» أن صلاح الدين راسل

الملك الصالح، وبمعنى أدق راسل «شمس الدين ابن المقدم» فى دمشق، بعد غزو سيف الدين للموصل معاتبا له لأنه لم يعلمه: «بقصد سيف الدين بلاده ليحضر فى خدمته ويكشف سيف الدين»[٢].

ثم عرض ابن أبى طى الأسباب التى كانت وراء سيطرة صلاح الدين على دمشق، واتفق فى أولها مع ما ذكره العماد الأصفهانى وابن الأثير عن دعوة شمس الدين ابن المقدم له، وانفرد بباقى الأسباب، ويتفسير دعوة ابن المقدم له فقال: «وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل إنما خرج إلى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض. وبجواب مُمض ورد من ابن المقدم {إليه}[٣]. ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه»[٤]

على أية حال اتجه صلاح الدين إلى دمشق، وواجهه بعض المعارضة من جانب والى القلعة بها، ثم أحكم سيطرته عليها فى آخر ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م، وأعلن ولاءه للملك الصالح إسماعيل من خلال المظاهر الدالة على ذلك من إقامة الخطبة والسكة

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٦ .
(٣) ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٧) .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ (طبعة دار الكتب) .

له[١].

ثم قام صلاح الدين بإعادة الأمور فى دمشق إلى ما كانت عليه فى عهد نور الدين محمود، وقد عرض ابن أبى طى السمات العامة لسياسته بها، وأوضح أنها اتسمت بالتسامح فقال: «ولما حصل على دمشق و قلعتها، و استوطن بُقعتها، نشر علم العدل و الإحسان، وعفى أثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن و الضرائب المحرمات[٢]»[٣].

ولقد آثارت سيطرة صلاح الدين على دمشق الأمراء فى حلب، فأرسلوا إليه الأمير «قطب الدين ينال بن حسان»[٤] برسالة شديدة اللهجة. وكان «العماد الأصفهاني» قد ذكر هذه الرسالة ورد صلاح الدين عليها، ولكن روايته وصلتنا مختصرة[٥] بالمقارنة بما أورده ابن أبى طى، وهذا أضفى على كتاباته فى هذا الموضوع أهمية كبيرة.

قال ابن أبى طى: «لما اتصل بمن فى حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا و أشفقوا و أجمعوا على مراسلته، فحمّلوا «قطب الدين ينال بن حسان» رسالة أرعدوا فيها و أبرقوا، وقالوا له: «هذه السيوف التى ملكتك مصر بأيدنا، و الرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرّجال التى ردت عنك تلك العساكر هى تردّك، و عمّا تصديت له تصدّك ؛ وأنت فقد تعدّيت طورك، و تجاوزت حدّك، و أنت

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٨٢ ؛ ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣١؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩ ـ ٢٠؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) اتفق « ابن كثير » و « المقريزي » مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .

(٤) هو قطب الدين ينال بن حسان : كان واليا على « منبج » ، وآلت إليه بعد وفاة والده الأمير حسان في عام ٥٦٢ هـ/ ٦٦ ـ ١١٦٧ م . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٢ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٢ ـ ٦١٣ (رواية العماد) طبعة دار الكتب ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٠٨) .

أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه فى ولده»[١].

ثم قال ابن أبى طى عن موقف السلطان صلاح الدين من هذه الرسالة: «ولما بلغ السلطان وُرُود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه و بنفسه، وبالغ فى إكرامه والإحسان إليه ؛ ثم أحضره بعد «ثالثة» لسماع الرسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقَاشِق الباطلة وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يُعِره السلطان، رحمه الله، طرفا ولا سمعا، ولا رد عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا و تغاضيا، وترك جوابه إحسانا وتجافيا، وجرى فى ميدان أريحيته، واستن فى سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا اعلم أننى وصلت إلى الشام، لجمع كلمة الإسلام، و تهذيب الأمور، و حياطة الجمهور، وسدّ الثّغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين»[٢].

ثم أورد ابن أبى طى رد الأمير حسان على ما ذكره صلاح الدين فقال: «فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحْن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد وأيتام الأولاد». {فتبسم}[٣] السلطان لمقاله،

وتزايد فى احتماله وَأَوْمَى إلى رجالِه بإقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه»[٤]

ثم اتجه صلاح الدين بعد ذلك نحو مدينتى:

حمص وحماة:

سار صلاح الدين إلى حمص فى شهر جمادى الأولى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وتمكنت

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ،ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) في طبعة « دار الجيل » « فلم يلتفت » ، ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٧) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ،ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ (طبعة دار الكتب) .

قواته من السيطرة على المدينة، ثم غادرها بعدما ترك بها - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - فرقة من قواته تحاصر القلعة، ثم اتجه إلى حماة فى الشهر التالى، وأحكم سيطرته أيضا على المدينة، ثم راسل واليها «عز الدين جورديك» فى أمر تسليم القلعة، فوافق على تسليمها بعدما أقنعه صلاح الدين - حسب ما رواه «ابن الأثير» - بأنه يهدف من ذلك حفظ بلاد الملك الصالح وطاعته، ثم أرسله صلاح الدين إلى الأمراء فى حلب ليوضح لهم ذلك[١].

ولم تختلف رواية ابن أبى طى عن هذا الموضوع عما رواه العماد الأصفهانى وابن الأثير، وأضاف بعض التفاصيل الأخرى حول اجتماع صلاح الدين مع الأمير عز الدين جورديك، فقال: « ونادى فى عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجها إلى حمص فتسلم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها من يحصرها ؛ ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى «الرَّسْتَن»[٢] خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه «شمس الدين علي» و اتباع أمره. وسار جرديك حتى لقى السلطان واجتمع به بالرَّسْتَن وأقام عنده يوما وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة و سأله أن يكون السفير بينه وبين حلب فأجابه السلطان إلى مراده ؛ وسار إلى حلب وبقى أخو جرديك بقلعة حماة»[٣].

ثم عرض ابن أبى طى أحداث لقاء عز الدين جورديك مع الأمراء فى حلب، وتعد روايته عن هذا الموضوع من الروايات المهمة التى ذكرها، وتتمثل أهمية روايته فى

انفراده بذكر ما جاء بها من تفاصيل تطور أحوال عز الدين جورديك فى حلب وإلقاء

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٨٣ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣١ـ ١٣٢ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠ - ٢١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٢٢ - ٢٣ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٥ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٩.

(٢) الرَّسْتَنُ : بليدة علي نهر العاصي بين حماة وحلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .

القبض عليه، وكان ابن الأثير وبعض المؤرخين قد أشار فقط إلى خبر القبض عليه[١].

قال ابن أبى طى عن أحداث القبض على عز الدين جورديك وإيداعه مع بنى الداية فى نفس السجن: «وسار جرديك إلى حلب وهو ظانّ أنه قد فعل شيئا وحصّل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح، و أشار عليهم بمصالحة الملك الناصر ؛ فاتّهمه الأمراء بالمخامرة، وردّوا مشورته، و أشاروا بقبضه ؛ فامتنع الملك الصالح. ولجّ «سعد الدين كمشتكين» فى القبض عليه، فقبض وثقّل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذى فيه أولاد الداية»[٢].

ثم قال ابن أبى طى عن علاقة جورديك مع بنى الداية فى السجن، خاصة بعد أن كان قد قام بدور فى إلقاء القبض عليهم من قبل: «ولما قدم جرديك وشدّ فى وسطه الحبل وأنزل إلى الجب وأحس به أولاد الداية قام إليه منهم «حسن» و شتمه أقبح شتم، وسبه ألآم سب، و حلف بالله إن أنزل إليهم ليَقتُلنّه فامتنعوا من تدليته، فأعلم «سعد الدين كمشتكين» فحضر إلى الجبّ و صاح على «حسن» وشتمه وتوعّده، فسكن حسن وأمسك. وأنزل جرديك الجبّ، فكان عند أولاد الداية، وأسمعه حسن كل مكروه»[٣].

ثم ذكر ابن أبى طى بعد ذلك أثر القبض على بنى الداية و عز الدين جورديك على والده، خاصة بعد أن كانوا - كما سيظهر من روايته - قد لعبوا دورا مهما من قبل مع نور الدين محمود فى إجراءاته المتشددة التى اتبعها مع زعماء الشيعة فى حلب فى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م. وانفرد بهذه الإشارة عن دورهم فى تلك الإجراءات. فقال: «وكتب أبى {إلى حلب}[٤] حين اتصل به

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣ ؛ المقريزي : المصدر السابق،ج١، ق١، ص ٥٩ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) ساقطة من طبعة « دار الكتب » (المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨ (دار الكتب) ؛ ج ١، ص ٢٣٨ (دار الجيل) .

به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنُو فلانة أعوان الضّلالة قد ... قضى بدلّهم الأفلاك و القدر

وأصبحوا بعد عز الملك فى صفد ... وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجرّد الدهر فى جرديك عَزمته ... والدهر لا ملجأ منه ولا وزر»[1]

ثم تسلم صلاح الدين بعد ذلك قلعة حماة من أخى جورديك، وكان سلمها إليه - كما ذكر «ابن الأثير» - بعد علمه بخبر القبض على أخيه فى حلب[2]، وقد أضاف ابن أبى طى بعض التفاصيل الأخرى عن الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين فى حماة فقال: «ولم يزل السلطان مقيما على الرَّستَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غلمان جرديك واخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال و القهر، فرحل السلطان من ساعته عائدا إلى حماة، وطلب من أخى جرديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل؛ وصعد السلطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها، وولاّها

«مبارز الدين على بن أبى الفوارس» وذلك مستهل جمادى الآخرة»[3].

حصار صلاح الدين حلب (الحصار الأول):

واصل صلاح الدين سيره بعد ذلك نحو حلب، ودرب حصاره حولها فى ثالث جمادى الآخرة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م، حسب رواية العماد الأصفهانى[4]، واتفق ابن أبى

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨ (طبعة دار الكتب).

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢ - ٢٣؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٥؛ الحنبلي : المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٣) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨-٦٠٩ .

(٤) المصدر السابق، ص ٨٣؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣ .

طى مع العماد فى هذا التاريخ، وانفرد بتحديد الأماكن التى شملها الحصار، وتعكس روايته هنا أحد سمات منهجه فى جمع التفصيلات الدقيقة للاماكن التى تشهدها الأحداث التى يكتب عنها فقال: «و سار السلطان إلى حلب ونزل على أنف «جبل جوشن» فوق «مشهد الدكة» ثالث {جمادى}[1] وامتدت عساكره إلى «الخناقية» و إلى «السعدي». و كان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم، فلم يرعهم إلاّ وعساكره قد نازلت حلب، و{خيمته}[2] تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت»[3].

وقد صمد الأمراء فى حلب أمام الحصار، واتبعوا فى ذلك كل الأساليب الممكنة، فلجأوا إلى أهل حلب، وعهدوا إلى «الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود»

بمهمة كسب ولائهم، فألقى عليهم خطابا حثهم فيه على طاعته وحفظ البلد، وقد عرض «ابن الأثير» جزءا من هذا الخطاب[4]، وانفرد ابن أبى طى بمزيد من التفاصيل الأخرى حول ردود فعل الأمراء فى حلب من الحصار، وما اتخذوه من إجراءات لضمان بقاء سيطرتهم على أهل حلب.

قال ابن أبى طى: «فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على «ابن نور الدين» أن يجمعهم فى الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الوزير والملجأ. فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غصّ الميدان بالناس، فنزل «الصالح» من «باب الدرجة» وصعد من الخندق ، ووقف فى رأس الميدان من الشمال وقال لهم: «يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم كبيركم عندى بمنزلة الأب، وشابكم عندى بمنزلة الأخ، وصغيركم عندى يحل محل

(١) في طبعة « دار الجيل » . « الشهر » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .
(٢) في طبعة « دار الجيل » . « خيمه » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٩ (طبعة دار الكتب) .
(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٢ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

الولد». قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه ؛ فافتتن الناس و صاحوا صيحة واحدة ورمَوْا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا و أنفسنا لك ؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه»[١].

وقد استغل الشيعة فى حلب الحصار، وطالبوا الملك الصالح إسماعيل بإعادة العديد من شعائرهم التى أبطلها والده منذ عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، فوافق على كل شروطهم لكسب ولائهم له[٢]، وقد أمدنا ابن أبى طى بكل هذه التفاصيل الهامة،والتى كان والده

أحد شهود العيان فيها. فقال: «وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم «شرقية الجامع» يصلّون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر «بحّى على خير العمل» والأذان والتذكير فى الأسواق ؛ وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثنى عشر، وأن يصلوا على أمواتهم «خمس تكبيرات» ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف «الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحسني»[٣]، وأن تكون العصبية مرتفعة، و الناموس وازع لمن أراد الفتنة ؛ وأشياء كثيرة. اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله. فأجيبوا إلى ذلك. ثم قال ابن أبى طى: فأذن المؤذنون فى منارة الجامع وغيره بحّى على خير العمل وصلى «أبي» فى «الشرقية»

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٩ .

(٢) هذه هي المرة الثانية التي استغل الشيعة فيها اضطراب أحوال حلب ليطالبوا بإعادة شعائرهم التي أبطلها نور الدين محمود ، وكانت المرة الأولي ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م عندما مرض نور الدين بحلب وحاول أخوه « نصرة الدين أمير أميران » الاستيلاء علي البلد ، فطالبه الشيعة بإعادة شعائرهم ، فوافقهم ، وبعد شفاء نور الدين محمود عادت أحوال الشيعة إلي سابق عهدها . وفي أثناء حصار صلاح الدين الثاني لحلب في عام ٥٧١هـ ـ والذي سوف نذكر تفاصيله فيما بعد ـ أعطي الملك الصالح الشيعة « الشرقية » في المسجد الجامع ليجتمعون فيها للصلاة ، واختلف بذلك ابن العديم مع ابن أبي طي في توقيت إعادة شعائر الشيعة ، حيث ذكره ابن أبي طي ـ كما هو مبين بالمتن ـ بعد حصار حلب الأول في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ـ٣٠٩ ، ج ٣ ، ص ٢٩) .

(٣) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن الشروط التي اشترطها الشيعة علي الملك الصالح إسماعيل . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٤) .

مسبّلا، وصلى وجوه الحلبيين خلفه وذكروا فى الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف فى أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه»[١].

وبهذا آمن الملك الصالح ومن حوله من الأمراء من أهل حلب بقسميه السنّة والشيعة واستمر صلاح الدين فى حصار حلب على الرغم من شدة برودة الطقس، وقد وصف العماد الأصفهانى ذلك فقال: «وكانت الشتوة ذات أنواء وثلوج، وعواصف هوج»[٢] ولعل هذا كان من العوامل إلى دفعت صلاح الدين إلى طلب عقد الصلح مع الحلبيين، وكان ابن أبى طى قد انفرد بذكر هذه المبادرة من جانب صلاح الدين، فقال: «وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الأمطار هائجة الأهوية ؛ وكان السلطان قد جعل أولاد الداية عُلالة له وسببا يقطع به ألسنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام، وقصْد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم. وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين فاشتد حينئذ السلطان فى قتال البلد»[٣].

وعلى أثر ذلك فكر الأمراء فى حلب فى التخلص من صلاح الدين وقتله، فاستعانوا بقوى خارجية، فلجأوا أولا إلى «راشد الدين سنان» زعيم فرقة الإسماعيلية فى بلاد الشام،وعهدوا إليه بهذه المهمة،وقد عرض«العماد الأصفهاني»تفاصيل هذه المحاولة[٤]، وذكرها أيضا ابن أبى طى، واتفق معه فى معظم روايته فقال: «وكانت ليالى الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضى إلا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة فى مخاتلته وإرسال المكروه

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢١ ـ ٢٢ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ص ٦١٣ ـ ٦١٤ (رواية العماد) ؛ ابن واصل : المصدر السابق،ج٢، ص ٢٤؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة «سنان» صاحب الحشيشية فى إرصاد المتالف للسلطان و إرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالا جمّة، وعدة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان فجاءوا إلى جبل «جوشن» واختلطوا بالعسكر، فعرفهم «صاحب بوقبيس»[١] لأنه كان مثاغرا لهم، فقال لهم: يا ويلكم: كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلى فيه ! فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه فى موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم و قتلوا البعض. وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة»[٢].

وبعد فشل هذه المحاولات التى قامت بها فرقة الإسماعيلية، لجأ الأمراء فى حلب إلى إمارة طرابلس الصليبية، فراسلوا أميرها «ريموند الثالث» (١١٥٢ ـ ١١٨٧ م / ٥٤٧ ـ ٥٨٣ هـ)، لمعاونتهم على فك الحصار، وقد لقى ذلك قبولا لدى الأمير ريموند بسبب قلقه من قوة نفوذ صلاح الدين فى الشام، لما سيكون لهذه القوة من أثر على هجماته عليهم فى المستقبل[٣]. وقد تناول العماد الأصفهانى هذه المحاولة، وذكر مقدمة عن الأمير ريموند الثالث، أوضح فيها ما كان يتمتع به من قوة و سلطان لدى الصليبيين، مما يشير إلى خطورة هذه المحاولة على حصار صلاح الدين حلب[٤].

وقد أورد ابن أبى طى هنا أيضا نفس رواية العماد، وتطابقت روايته معه فى بعض الكلمات، فقال: «ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحّل السلطان عن حلب. وكان لعنه الله فى أسر نور

(١) هو الأمير ناصح الدين خمارتكين : كان واليا على حصن « أبو قبيس » الذي يقع مقابل حصن « شيزر » ، وكان يشتبك كثيرا مع الإسماعيلية . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٨٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٢ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨١) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٠ ـ ٦١١ .

(٣) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣ ـ ٨٤ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

الدين منذ «كسرة حارم»[١]، وكان قد بذل فى نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل موت نور الدين سعى له « فخر الدين مسعود بن الزعفراني» حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير[٢]. واتفق فى أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر «ولده المجذوم»[٣]، فعظم شأنه و زاد خطره»[٤].

و قد بدأ الأمير «ريموند الثالث» تصديه لحصار صلاح الدين لحلب بمراسلة له وتهديده بحجم قوتهم، فرد صلاح الدين عليه بمهاجمة إنطاكية، وهذه المراسلات انفرد بها ابن أبى طى فقال: «فأرسل إلى السلطان فى أمر الحلبيين وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة، فقال السلطان: لست ممن يرهب بتآلب الفرنج وهاأنا ذا سائر إليهم. ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد إنطاكية، فغنموا غنيمة حسنة وعادوا»[٥].

---

(١) تناولنا تفاصيل هذا الموضوع في فصل الدولة الأتابكية في أحداث عام ٥٥٩ هـ .

(٢) اختلف ابن الأثير مع رأي العماد الأصفهاني و ابن أبي طي في توقيت الإفراج عن أمير طرابلس ، فذكر أنه كان بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٧٠ هـ / ٧٤ ـ ١١٧٥ م ، و أفرج عنه « سعد الدين كمشتكين » . واتفق « وليم الصوري » مع العماد الأصفهاني فيما ذكره عن قيام نور الدين محمود بالإفراج عن أمير طرابلس ، وذكر أنه تم في مقابل ثمانين ألف قطعة ذهبية ، وقد حدد د: حسن حبشي في تحقيقه لكتاب وليم الصوري تاريخ الإفراج عنه في أكتوبر عام ١١٧٢ م / ٥٦٨ هـ . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص١٥٥ ، ١٦٧ هامش (٤٥) ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢) .

(٣) هو الملك بلدوين الرابع ابن الملك عموري الأول : تولي الحكم في مملكة بيت المقدس بعد وفاة والده في عام ١١٧٤ م / ٥٦٩هـ وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وكان قد أصيب بمرض الجذام فتولي ريموند الثالث (١١٥٢ ـ ١١٨٧ م / ٥٤٧ ـ ٥٨٣ هـ) أمير طرابلس تدبير أمور المملكة ، واستمر ملك بلدوين الرابع حتى عام ١١٨٥ م/ ٥٨٠ هـ . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ ، ١٨١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ، ٦٢٣) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١١ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

فاتجه أمير طرابلس ريموند الثالث على أثر هذا الهجوم نحو مدينة حمص، للضغط على صلاح الدين لترك حصار حلب، وأيضا لأن حمص كانت تمثل أهمية كبرى لدى الصليبيين لوجود العديد من رهائنهم بها[١]. وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أن هذا المخطط نجح فى إبعاد صلاح الدين عن حصار حلب[٢]، وذكر ذلك أيضا ابن أبى طى، فقال: «فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعا إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب»[٣].

وانتقل السلطان صلاح الدين بعد رحيله عن حلب إلى:

قلعة حمص:

وكان - كما سبق أن ذكرنا - قد بسط سيطرته على مدينة حمص، وظلت قواته تحاصر القلعة لمدة شهر ثم تسلمها[٤]، ووصلنا من رواية ابن أبى طى خبر ملكه لها فقال: «ووصل إلى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله»[٥].

و هنأ العماد الأصفهانى السلطان صلاح الدين ببعض أبيات من الشعر مدح فيها انتصاره فى حمص، وقد دعم ابن أبى طى كتاباته بهذه الأبيات، وصرح باعتماده على العماد فقال: «وفى فتح قلعة حمص يقول «العماد الكاتب» من قصيدة، وستأتى:

إيـــاب ابـــن أيـــوب نحـــو الـــشآم ... عـــلى كـــل مـــا يرتجيـــه ظهـــور

بيوســـــف مـــــصر و أيامـــــه ... تقـــرّ العيـــون وتـــشفى الـــصدور

---

(١) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٤ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١١ .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٨٤ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٢ .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١١ .

رأت منـــك حمـــص لهـــا كافيـــا فواتـــاك منهـــا القـــوى العـــسير»[١]

و بعد اتمام سيطرة صلاح الدين على حمص أرسل البشائر بذلك إلى مصر، لكل من: الفقيه «زين الدين ابن نجا الواعظ»، وأخيه الملك العادل نائبه فيها، وهى من إنشاء القاضى الفاضل، وتعد من الوثائق المهمة التى حرص ابن أبى طى على تدعيم كتاباته بها.

قال ابن أبى طى: «ومن كتاب فاضلى عن السلطان إلى «زين الدين بن نجا الواعظ» يقول فى وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما فى سحاب، وعُقابا فى عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها

الأصيل كان الهلال منها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألا يروعها بخلعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص فى العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب ؛ فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثرت فيها جدريا بضربها، ولم تصل السابع إلا و البحران منذرٌ بنَقْبها. واتّسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد {من}[٢] هو إليها الطالع ! وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسُيِّرت الجبال فكانت سرابا. فهنالك بدت نقُوب يرى القائم من دونها ما وراءها، وحُشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ثم قال أيضا: «ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان إلى أخيه العادل» قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذى يخرج عن العَّد. وبعد أن نُرتِّب أحوال حمص، حرسها الله تعالى، نتوجه إلى حماة ؛ والله المعين على ما ننويه من

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦١١ ـ ٦١٢ (طبعة دار الكتب) .

(٢) ساقطة من طبعة « دار الجيل» (أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص٢٣٩ (دار الجيل) ؛ ج١ ، ق٢ ، ص٦١٢(طبعة دار الكتب) .

الرّشاد، وننظّفه من طرق الجهاد»[١].

سيطرة صلاح الدين على بعلبك:

بعد الانتصارات التى حققها السلطان صلاح الدين فى الشام، راسله «يمن الخادم» والى بعلبك، وسلمها إليه - كما ذكر العماد الأصفهانى وابن الأثير - فى شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م[٢]. وقد أضاف ابن أبى طى فى روايته أسباب تسليمه بعلبك، وأوضح أنه اضطر إلى ذلك بعد أن استنجد بالأمراء فى حلب ولم يصل إليه منهم رد. فقال: «وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب فى أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر ؛ فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان»[٣].

وكانت مدينة بعلبك آخر أهم البلاد التى دخلت فى سلطة الدولة الأيوبية فى بلاد الشام فى عام ٥٧٠هـ/ ٧٤ - ١١٧٥ م،وقد غطت الأحداث التى وصلتنا من كتابات ابن أبى طى عن سيرة صلاح الدين معظم هذه التوسعات.وتبين لنا خلال دراستنا لهذه الكتابات ومقارنتها بغيرها من الكتابات سواء التى عاصر مؤلفوها هذه الأحداث مثل المؤرخ العماد الأصفهاني،أو عاصروا ابن أبى طى مثل«ابن الأثير»،اعتماد ابن أبى طى اعتمادا

كبيرا على كتابات العماد الأصفهاني،وقد صرح ابن أبى طى فى إحدى رواياته باعتماده عليه وذكر عنه بعضا من أبيات الشعر.

كما كان لابن أبى طى إضافات مهمة انفرد بها ومنها: الوثائق المتبادلة بين صلاح الدين والأمراء فى الشام، وبينه وبين الأمراء فى مصر، كذلك انفرد بكثير من الأحداث

(١) المصدر نفسه ، ص ٦١٢ (طبعة دار الكتب) .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق،ص ٨٤ ؛ ابن الأثير:المصدر السابق،ج ٩ ، ص١٣٢ . وانظر أيضا:ابن العديم:المصدر السابق،ج ٣ ، ص ٢٢ ؛ ابن واصل:المصدر السابق،ج ٢، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣١ .

خاصة التى تتعلق بتاريخ حلب، ومن الواضح أن والده كان من أهم مصادره فيها، حيث كان ـ كما ذكرنا ـ شاهد عيان لبعض منها.

وتناولت كتابات ابن أبى طى فى بقية أحداث عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م تفاصيل الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل و حلب، و علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية فى بغداد، ثم ملكه حصن «بَعْرين»، وختم ابن أبى طى أحداث العام بعرضه لإحدى الفتن التى قامت فى دمشق وحلب.

الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب (معركة قرون حماة):

أثارت التوسعات التى حققها صلاح الدين فى شهور قليلة فى بلاد الشام ملوك الموصل و حلب، وقرروا وقف زحفه خوفا على مصالحهم.

وكان صلاح الدين بعد ملكه بعلبك قد عاد إلى حمص، وهناك علم ـ كما ذكر العماد الأصفهانى ـ بوصول الأمير «عز الدين مسعود»[١] أخى «سيف الدين غازي» ملك الموصل قائدا لجيش كبير من قوات الموصل، وذلك لنجدة الملك الصالح إسماعيل فى حلب[٢]، وقد أوضح «ابن الأثير» أن الملك الصالح إسماعيل قام بمراسلة ابن عمه سيف الدين غازى ملك الموصل مستغيثا به بعد أن اتسعت أملاك صلاح الدين وشملت دمشق وحمص وحماة[٣]، وعلل «ابن شداد» سبب إقدام سيف الدين غازى على نجدة ابن عمه إلى

---

(١) هو عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي : تولي الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م ، واستمر ملكه لها حتى توفي في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م . (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٨٧) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦. وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٦٣٤(رواية العماد).

(٣) المصدر السابق، ج٩، ص ١٣٣ وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢؛ ابن واصل: المصدر السابق،ج٢، ص٣٠.

خوفه أيضا على أملاكه خاصة بعد أن صار صلاح الدين بعد ما حققه من توسعات قوة لا يستهان بها[١].

وقد تناول ابن أبى طى فى مقدمة روايته عن هذا الموضوع ما ذكره العماد الأصفهانى، وانفرد بعد ذلك بذكر تفاصيل المراسلات بين حلب والموصل، فقال: «لما تسلم السلطان بعلبك وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود «عز الدين مسعود» أخى «سيف الدين صاحب الموصل، نجدة للملك الصالح . وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما ك السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأنه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل ؛ وأرسلوا بذلك «أمين الدين ها خطيب حلب، و « قطب الدين ينال بن حسان» و «غرس الدين قليج[٢]»[٣].

ثم تناول ابن أبى طى الأحوال فى الموصل قبل وصول استغاثة ملك حلب ا . أن سيف الدين غازى أبدى اهتماما كبيرا بأمر حلب حتى أنه أنهى الخلاف الذى كان بينه بين أخيه «عماد الدين بن زنكي»[٤] أمير «سنجار»[٥] وأرسل جيشه لنجدة حلب فقال

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٥٠ .

(٢) هوغرس الدين قلج : أحد أمراء نور الدين محمود ، و شارك في حملة أسد الدين شيركوه علي مصر في عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م ، وتولى بعض القلاع مثل : دركوش ـ الشغر ـ بكاس ، توفي في عام ٥٩٤ هـ/ ١١٥٤ م .(ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ؛ ج ٣ ، ص ١٤١) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٦ ـ ٦٣٧ .

(٤) عماد الدين زنكي بن قطب الدين بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر : أكبر أبناء قطب الدين مودود وكان قد عهد إليه بولاية العهد من بعده ثم تراجع و جعلها لأخيه سيف الدين غازي ، واستقر ملكه في سنجار بعد وفاة والده في عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م ، ثم تركها وتولي حلب ثم تركها وعاد لحكم سنجار والخابور و الرقة . توفي عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧ م . (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧، ص١٨٠، ١٩٠) .

(٥) سِنْجَارُ : من المدن الواقعة في جزيرة أقُور بين نهري دجلة و الفرات ، بالقرب من الموصل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ ج ٣ ، ص ٢٦٢) .

«وكان سيف الدين منازلا «لسنجار» وفيها أخوه عماد الدين ابن زنكى. وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم و بعسكره. فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين و حشد عسكره و أنفذ يجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود»[١].

وهذا الرأى لم يوافق كتابات ابن الأثير، وعلى العكس من ذلك فقد أكد أن سيف الدين غازى لم يصالح أخاه عماد الدين بن زنكى فى ذلك الوقت، وأوضح أن الصلح

بينهم وقع بعد هزيمة قوات الموصل وحلب أمام صلاح الدين فى موقعة قرون حماة[٢].

على أية حال وصل جيش الموصل بقيادة عز الدين مسعود، وقام بحصار حماة ثم ما لبث أن رحل عنها، وعلل العماد الأصفهانى ذلك بأنه وجد «أنهم لا ينالون منها»[٣]، وأضاف ابن أبى طى فى روايته المزيد عن أسباب رحيل جيش الموصل عن حماة، والمرحلة التالية التى نزل عندها، فقال: «فورد (عز الدين مسعود) حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك ؛ فاغتنم الحلبيون بُعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعا حتى خيموا على حماة وأخذوا فى حصارها. واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك إلى حمص، وبلغ عز الدين فعاد عن حماه ونزل قريبا من «جباب التركمان» إلى جهة العاصى إلى قريب من شيْزَر»[٤].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٧ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٦ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٧ (طبعة دار الكتب) .

وبعد رحيل قوات الموصل عن حماة، قام «عز الدين مسعود» بمراسلة نائب صلاح الدين فى حماة ليتوسط بينهم وبين صلاح الدين لعقد الصلح، وبدأت المفاوضات حول بنود الصلح، ولكن لم يقنع جانب الموصل و حلب بما تنازل عنه صلاح الدين وفشلت لذلك المفاوضات.

وتناول تفاصيل هذا الموضوع «العماد الأصفهاني»[١]، واتفق معه ابن أبى طى اتفاقا كبيرا، مما يؤكد اعتماد ابن أبى طى على كتاباته. فقال: «و{أرسل}[٢] النائب بحماة «على ابن أبى الفوارس» يقول له: إنما وصلت فى إصلاح الحال ووضع أوزار القتال ؛ وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلم شعب الفرقة. فكتب ابن أبى الفوارس بذلك إلى السلطان وحَسَّن له الصلح وتلطف فى ذلك غاية التلطف. وقدم «أبو صالح بن العجمي» و «سعد الدين كمشتكين» لطلب الصلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا. وتقرر الأمر على أنه يرد إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائبا للملك الصالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصلح

والنزول عن جميع الحصون التى أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع فى جانب السلطان و تجاوز الحد فى الاقتراح، وطلب «الرحبة» وأعمالها. فقال: هى لابن عمى ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافرا، وكان ذلك برأى أبى صالح ابن العجمى لأنه كان معه فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل»[٣].

وبعد فشل هذه المفاوضات بدأت قوات الموصل وحلب فى الاستعداد لقتال صلاح الدين، وقد شجعهم على ذلك معرفتهم بضعف قواته، حيث كان قد خرج عند اجتماعه

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٦ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١ ـ ٣٢ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٥ .

(٢) في « طبعة دار الجيل » . « وراسل » . ونري أن المعني هنا أدق ، لأنه أوضح قيام عز الدين مسعود بمراسلة النائب في حماه . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٩) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨ .

معهم فى مفاوضات الصلح فى «عسكر حفيف» كما ذكر «العماد الأصفهاني»[١].

وقد عرض ابن أبى طى فى روايته تفاصيل استعدادات كلا الجانبين للقتال، وأوضح السياسة التى اتبعها صلاح الدين لكى يؤجل اللقاء بينهما حتى يأتيه المدد العسكرى، واتفق ابن أبى طى مع العماد فيما ذكره عن حجم قوات صلاح الدين، وانفرد بباقى التفاصيل، فقال: «وخرج (ابن العجمى) إلى عز الدين مسعود وكان بعدُ نازلا على حماة، وحدثه ما دار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان واخبره بقلّة من معه. وكان السلطان لما كوتب فى أمر الصلح سار فى خفّ من أصحابه،فلما علموا بذلك طمعوا فى جانبه وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة فى أمره؛فكاتب باقى أصحابه واستعد لحربهم، وسار إلى أن نزل على «قرون حماة»، وأخذ فى مدافعة الأيام حتى يقدم عليه باق عسكره. وراسلهم فى التلطف للأحوال، فلم ينجح فيهم حال. وكانوا فى كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها،تسويفا للأوضاع وتقطيعا للزمان،حتى يقدم عليه عسكره وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرصة ونالوا منه الغرض»[٢].

ثم بدأ القتال بين صلاح الدين و قوات الموصل و حلب بالقرب من مدينة حماة عند منطقة «قرون حماة» فى التاسع عشر من شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م وانتهت المعركة بهزيمة قوات الموصل و حلب. وقد تناول العماد الأصفهانى وابن الأثير وكثير من المؤرخين أحداث هذه المعركة باختصار[٣]. وانفرد ابن أبى طى بينهم بذكر تفاصيل القتال، واتفق فى بعض أحداثه مع العماد الأصفهانى، وقد كشف ابن أبى طى فى روايته

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ .

(٣) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص٨٦ ـ ٨٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر ، ص ٥١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

النقاب حول الخطة التى اتبعها صلاح الدين حتى يأتيه المدد من مصر، و أثرها بعد ذلك على نتائج المعركة.

قال ابن أبى طى: «وفى يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن وَصل السلطان من عسكره أحد ؛ فتجمع أصحاب السلطان «كردوسا»[1] واحدا، واخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضرى عسكر حلب والعسكر الموصلى على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، و كاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل «تقى الدين عمر» عند الحاجة إليه لتمام {سعادة السلطان}[2]، فإنه لو تأخر ساعة {انكسر}[3] عسكره ؛ فوصل تقى الدين فى عسكر مصر و «جماعة من الأمراء»[4] وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس فى الكرّ، والضرب «الهبر»[5]، حملوا جميعا بعد أن افترقوا فى {اليمنة واليسرة}[6]، فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم. وكان السلطان فى هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم و استَفسَدهم إليه، وحمل إليهم الأموال. وهذا هو الذى أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا {لو}[7] كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة. فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التى كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا

---

(١) الكُرْدُوس : الخيل العظيمة ، ويقال كَرْدَس القائد خيله أي جعلها كتيبة . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٦٣) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « السعادة للسلطان » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « لانكسر » . ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) وصل من مصر عشرة من كبار الأمراء ، منهم : تقي الدين عمر ، وعز الدين فرخشاه ، أبنا أخي صلاح الدين ، وشهاب الدين محمود بن تكش خال صلاح الدين وخواص رجاله . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢) .

(٥) الهَبْرُ: القطع ، واهتبر بالسيف قطع . (ابن منظور : لسان العرب ،ج ١٢ ، ص٦٣) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » . « الميمنة و الميسرة » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٧) في طبعة « دار الجيل » . « فلو » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه ألا يُوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يذففوا على جريح، و رحل حتى نزل فى منزلتهم[1]»[2].

وبعد انتصار صلاح الدين فى المعركة قام - كما ذكر ابن الأثير - بإلغاء كل المظاهر التى توضح ولاءه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، فقطع الخطبة له من بلاده، ورفع اسمه من العملة[3]، ثم سار بعد ذلك حتى وصل إلى منطقة «قرا حصار»[4]، وأوضح «العماد الأصفهاني» أنه ظل نازلا هناك بنية الحصار حتى انتهى عيد الفطر، فقرر لذلك الأمراء فى حلب عقد الصلح معه، ووصلت إليه رسل الملك الصالح لتتفاوض معه بشأن بنود العقد، وتقرر فيه أن يكون لصلاح الدين فضلا عمّا معه من بلاد بلدتى «المعرة»[5] و «كفر طاب[6]»[7].

وقد عرض ابن أبى طى فى روايته معظم ما ذكره العماد الأصفهانى، فقال: « ثم سار (صلاح الدين) من وقته مجدا حتى نزل بمرج «قرا حصار»، ولم يزل هناك حتى عيّد عيد

---

(١) تطابقت بعض الكلمات التي أوردها ابن كثير في أحداث القتال مع رواية ابن أبي طي . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٥-٨١٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ - ٦٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٤) قَرَا حِصَار : مرج كبير في شمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٥) .

(٥) معَرَّةُ النُعمَان: مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماة. (المصدر نفسه، ج٥، ص١٥٥-١٥٦).

(٦) كفرْ طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . (المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٧٠) .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩ .

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة و أن {يُقرر}[١] الملك الصالح على ما فى يده و ما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرة و كفر طاب، فرضى بذلك»[٢].

وقد اشتمل عقد الصلح على بنود أخرى مهمة انفرد بها ابن أبى طى، لأنه كان قد رأى نسخة العقد الموقعة بخط صلاح الدين و نقل منها مباشرة هذه البنود ولهذا تمثل كتاباته هذه أهمية كبيرة بين كثير من المؤرخين.

كان أول هذه البنود يتضمن معاهدة دفاعية وقعها صلاح الدين للدفاع عن الملك الصالح إسماعيل فى حلب عند تعرض بلاده لأية هجوم خارجى، ووافق صلاح الدين فى البند الثانى على استمرار ولائه للملك الصالح وإقامة كل المظاهر الدالة على ذلك فى كل البلاد الخاضعة لسلطته. وفى هذا البند إشارة لما ذكره ابن الأثير من قبل عن قيام صلاح الدين بقطع ولائه للملك الصالح، وفيه أيضا إضافة مهمة توضح عودة العلاقات بينهما إلى سابق عهدها. قال ابن أبى طى: «وحلف على نسخة «رأيتها» وعليها خطه[٣]. قال: وكان فى جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوٌ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، و[٤] أصحابه، وأن تكون السكة باسمه[٥]. ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه عاد

(١) في طبعة « دار الجيل » . « يقر » . ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٣) أورد المقريزي نفس عبارة ابن أبي طي في هذا الجزء فقال : « وكُتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين ، بعد ما حلف » . (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩) .

(٤) في طبعة « دار الجيل» . « أن لا » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٥) ذكر ابن كثير البند الثاني الذي أورده ابن أبي طي . وأضاف بنود أخرى . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٦) .

السلطان قاصدا دمشق»[١].

ولم يستمر هذا الصلح لمدة طويلة حيث تجدد الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب مرة أخرى فى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م، وسوف نوضح رأى ابن أبى طى فى هذا الموضوع فى أحداث ذلك العام. ونواصل الآن باقى كتابات ابن أبى طى عن أحداث عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م.

العلاقة بين الخلافة العباسية و صلاح الدين:

تناولت كتابات ابن أبى طى فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م العلاقة بين الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م) وصلاح الدين. وفى حقيقة الأمر فقد شهدت العلاقة بينهما تطورا كبيرا فى ذلك العام، حيث لم يعد صلاح الدين نائبا عن نور الدين محمود فى حكم إحدى ولاياته، بل أثبت للخلافة العباسية بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، أنه أقوى من يخلف نور الدين محمود من أمرائه، ويواصل سياسته سواء فى طاعته وولائه للخلافة العباسية أو فى تحقيق الوحدة الإسلامية.

وهذا التحول فى العلاقة تم ـ فى رأينا ـ بناءا على خطة وضعها صلاح الدين لكسب رضاء الخلافة العباسية، وذلك لأنه على الرغم من أن الخلافة كانت فى ذلك الوقت لا حول ولا قوة لها إلا أن تأثيرها الدينى بصفتها حامية العالم الإسلامى كان لا يزال قويا، وكان الخلفاء يعطون تأييدهم لمن يستطيع الدفاع عن البلاد الإسلامية، ومن هنا كان على صلاح الدين أن يثبت ذلك للخلافة، فأرسل إلى الخليفة المستضئ أولا: رسالة مهمة أوضح فيها «نظريا» مدى قوته وقدرته على تحمل الصعاب ونجاحه فى إحراز العديد من الانتصارات، وذلك منذ أن كان أميرا فى جيش نور الدين محمود، وحرص فى كل فقرة فى هذه الرسالة على أن يؤكد ولاءه و طاعته للخليفة، وطلب فى ختام هذه الرسالة تقليدا بولاية: «كل ما تشتمل

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٩ .

عليه الولاية النورية»[١]. ثانيا: سار صلاح الدين بقواته من مصر إلى بلاد الشام، وكان أحد أهدافه من ذلك هو أن يؤكد «عمليا» للخلافة العباسية تميزه بين أمراء نور الدين محمود، فنجح فى ضم العديد من البلاد التى سبق أن ذكرناها، وأصبح الآن أقوى من يخلف نور الدين محمود ويستحق بذلك تأييد الخلافة، ولهذا أرسل إليه الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله تقليدا بولاية مصر و الشام بعد أيام قلائل من انتصاره على قوات الموصل وحلب[٢].

ووصلت رسل الخلافة العباسية بهذا «التقليد»[٣] إلى صلاح الدين فى حماة فى شوال عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م، وكان معهم أيضا كما ذكر العماد الأصفهانى الخلع العباسية له و لأقاربه[٤]، وأمدنا ابن أبى طى بمضمون التقليد، كما أورده بعض المؤرخين اللاحقين به[٥] فقال: «فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضىء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود، وتوقيعٌ من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام. ثم قال: وفى هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبى:

يأيها الملك الغزير فضله ... لقد غدوت بالعلا مليا

كفى أمير المؤمنين شرفا ... أنك أصبحت له وليا

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذه الرسالة انظر . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ـ ٦٢٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٨١ ـ ٩٠) .

(٢) شيرين شلبي العشماوي : العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية و مصر ، ص ٢٠٧ ـ ٢٢٦ (رسالة ماجستير) .

(٣) للمزيد من التفاصيل حول نص التقليد انظر . (القلقشندي : صبح الأعشي ، ح ١٠ ، ص ١٣٥ ـ ١٤٤) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٨ ـ ٨٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٥) منهم : النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٧؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٠ .

طارحك الودّ على شحط النّوى ... فكنت ذاك الصّادق الوفيا

أوْلاكَ من لباسه زخرفة ... لم يولها قبلك آدميّا

ناسبت الرّوض سنا وبهجة ... حتى حكته رونقا وزيّا»[1]

سيطرة صلاح الدين على بعرين:

ختم صلاح الدين توسعاته فى بلاد الشام فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م بسيطرته على حصن بعرين، و أوضح العماد الأصفهانى أن والى هذا الحصن وهو «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» كان قد أقام علاقات طيبة مع صلاح الدين طمعا فى مركز أفضل لديه، ولكن أمله خاب بعد ذلك، وسار إليه صلاح الدين وملك منه الحصن سلما فى آخر شوال من السنة[2].

وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد فى روايته عن العلاقة بين صلاح الدين و ابن الزعفرانى، ولكنه اختلف معه فى كيفية سيطرة صلاح الدين على الحصن، فأوضح ابن أبى طى أنه ملكه بعد أن قام بحصاره، واتفق معه فى ذلك ابن الأثير وبعض المؤرخين[3]. فقال : «ورحل السلطان من حماة إلى بعرين.، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفرانى، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين، فأغضب السلطان ذلك وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه»[4].

كانت كتابات ابن أبى طى عن ملك صلاح الدين حصن بعرين آخر ما وصلنا من

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ـ١٣٤ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢، ص٣٤؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٨؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج١ ، ق ١، ص٦٠ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٠ .

كتاباته عن تاريخ صلاح الدين فى بلاد الشام فى عام ٥٧٠ هـ/ ٧٤ ـ ١١٧٥م. وكانت السمة العامة التى ظهرت من خلال تحليل كتاباته التى عرضناها له فى هذا العام هى اعتماده كثيرا على كتابات العماد الأصفهانى الذى يعد مصدرا مهما من مصادر تاريخ الدولة الأيوبية، كذلك كان لابن أبى طى بصمة خاصة ميزت كتاباته لانفراده بذكر بعض التفاصيل التى لم يذكرها من عاصره من المؤرخين، وكانت بعد ذلك من المصادر المهمة لبعض المؤرخين اللاحقين به مثل «ابن كثير» و المقريزي».

وتبقى من كتابات ابن أبى طى فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م حادثتين، الأولى تناول فيها أحداث فتنة أثارها أحد مدعى النبوة فى دمشق وحلب، فقال: «و ظهر فى «مشغرا»[١]، قرية من قرى دمشق، رجل ادّعى النّبوّة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التّخاييل و التمويهات ما فُتن به الناس، واتّبعه عالم عظيم من الفلاّحين وأهل السو د، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا فى الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة و التخاييل ؛ وهوى امرأة وعلّمها ذلك، وادّعت أيضا النبوّة»[٢][٣].

كما ذكر المؤرخ ابن العديم فتنة أخرى وقعت أحداثها فى العام التالى فى حلب ولعلها تكملة لما ذكره ابن أبى طى[٤].

أما الحادثة الثانية التى ختم بها ابن أبى طى أحداث هذا العام، فقد ذكر فيها إحدى التراجم، وفى هذا إشارة إلى انه كان يتبع فى كتاباته نهج كثير من المؤرخين فى ختام كتاباتهم الحولية، وأورد فى هذا الترجمة خبر وفاة أمير «قلعة البيرة»[٥]، فقال: «وفيها توفى «شهاب

(١) مَشْغَراً : من قري دمشق ناحية البقاع . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤) .
(٢) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع انظر : (البداية ، ج ١٢، ص ٨١٦) .
(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٣ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٥) البيرة : قلعة قرب سُمَيْساط بين حلب والثغور الرومية. (ياقوت : معجم البلدان. ج١، ص٥٢٦) .

الدين إلياس الأرتقي» صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده «شهاب الدين محمد»[١].

وفى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م تجدد الصراع مرة ثانية بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب، و اتسعت الدولة الأيوبية فى بلاد الشام وضمت العديد من البلاد، كذلك قام صلاح الدين بحصار حلب مرة أخرى، هذا فضلا عن بعض الموضوعات الأخرى التى وصلتنا من خلال كتابات المؤرخ ابن أبى طى فى هذا العام.

معركة تل السلطان:

وقعت أحداث هذه المعركة فى شهر شوال عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦م بالقرب من حلب فى منطقة تعرف «بتل السلطان»[٢]، ودارت بين صلاح الدين وقوات الموصل وحلب، وكان القتال قد نشب بين الفريقين بعد نقض الملك الصالح إسماعيل عهده مع صلاح

الدين، حيث أقنعه سيف الدين غازى ملك الموصل بذلك لأنه كان رافضا هذا الصلح، فاتحدا معا لقتال صلاح الدين[٣].

وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى نتائج المعركة فقط، حيث اختصر أبو شامة عند ذكره نص رواية ابن أبى طى مقدمة الأحداث التى توضح أسباب القتال وأحداث المعركة[٤]، والجزء الذى ذكره أبو شامة تناول فيه ابن أبى طى تفاصيل هزيمة سيف الدين

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٣ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٣) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٩٠ ـ ٩١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٤) لمزيد من التفاصيل حول أحداث المعركة انظر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٩٣ ـ ٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٦ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧ ـ ٤٠) .

غازى ملك الموصل، واتفق فى معظمه مع العماد الأصفهانى[١]، كما أضاف ابن أبى طى تفاصيل أخرى أوضحت اهتمام سيف الدين غازى باللهو والغناء حتى فى وقت الحرب، فقال: «أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرّك إلى جانبها ليكون {ردْءًا}[٢] لها ومددا، فظن باقى العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقق ما كان وهما، فسار على وجهه لا يلوى على شئ ؛ وتبعهم السلطان، فهلك منهم جماعة قتلا وغرقا وأسر جماعة {كبيرة}[٣] من وجوههم وأمرائهم ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التّعرض لمن وُجد منهم بقتل أو نهب . وفرق ما وجد فى خزائن سيف الدين وسيَّر جواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذ من مُقاساة الحرب ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور و«البرابط» و«العيدان» و«الجنوك» والمغنيين و المغنيات. قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنيّة[٤]، وأنّ السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البليّة. وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردّهم، وخلع عليهم وأرسلهم إلى حلب »[٥].

واهتم ابن أبى طى بعد تدوينه أحداث انتصار صلاح الدين فى هذه المعركة، أن يضيف إلى كتاباته عن هذا الموضوع ثلاث قصائد نظمت للتهنئة بهذا الانتصار. فذكر

عدة أبيات من قصيدة «للعماد الأصفهاني» كتبها لتهنئة صلاح الدين. وهذه القصيدة أوردها العماد فى كتابه «خريدة القصر و جريدة العصر»[٦]، ولكن من الواضح أن ابن أبى طى اعتمد على مصدر آخر للعماد غير الخريدة، حيث ظهر من خلال مقابلة الأبيات التى

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٢) في طبعة « دار الجيل» . « ردا ». (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

(٣) في طبعة « دار الجيل» . « كثيرة ». (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٨) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٢ (طبعة دار الكتب) .

(٦) قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص١٧ ـ ٢٢ .

أوردها ابن أبى طى مع القصيدة التى ذكرها العماد فى الخريدة، إضافة ابن أبى طى عدة أبيات لم ترد فى الخريدة.

قال ابن أبى طى: «وهنأ العماد السلطان رحمه الله تعالى بقصيدة، منها:

فالحمد لله الذى إفضالُه ... حلو{الجنا}[1]،عالى السَّنا، وضاّحه

عاد العدو بظلمة من ظلمه ... فى ليل وَيْل قد خبا مصباحه

و{جنى}[2]عليه جهله بوقوعه ... فى قبضة البازى فهيضَ جناحه[3]

حمل السلاح إلى القتال، وما درى ... أن الذى يجنى عليه سلاحه

أضحى يريد مواصليه صدوده ... وغدًا يجيد رثاءَه مدّاحُه[4]

إن أفسد الدينَ{الغلاةُ}[5] بحنثهم ... فالنّاصر الملك الصالح صلاحه

قد كان عزمك للإله مصمّما ... فيهم، فلاحَ، كما رأيت، فلاحه[6]

وكأننى بالساحل الأقصى، وقد ... ساحت{بنحْر}[7] دَم الفرنجة ساحه

فاعُبر إلى القوم الفرات ليشربوا ... المَوْت الأجاج، فقد طمى طفاحه

لتفك من أيديهم رهن الرّها ... عجلا، ويدرك ليلها إصباحه

وابغوا الحرَّان الخلاص، فكم بها ... حرّان قلب نحوكم مُلتاحه

نجّوا البلاد من البلاء بعد لكم ... فالظلم باد فى الجميع صُراحه

واستفتحوا ما كان من مستغلق ... فيها، فربّكُمُ لكمْ فتّاحه

---

(١) في طبعة « دار الجيل » . « الجني » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « جنا » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) لم يرد هذا البيت في الخريدة .

(٤) لم يرد هذا البيت في الخريدة .

(٥) في الخريدة « العصاة » . (العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨) .

(٦) لم يرد هذا البيت في الخريدة .

(٧) في الخريدة « ببحر » . (العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ج ١ ، ص ٢٠) .

أنتم رجال الدّهر، بل فرسانه ... وَلِذِى الحلوم الطائشات رجاحه

فتاكه، نسّاكه، ضرّاره ... نفاعه، مُناعه، مناحه

وأبو المظفر يوسف مطعَامه ... مطعانُه، مقدامه، جحجاحه

وإذا انتدى فى محفل فحييّه ... وإذا غدا فى جحفل فوَقاَحُه»[1]

أما القصيدة الثانية فقد نظمها ابن أبى طى للإشادة بدور «عز الدين فرخشاه»[2] فى المعركة، فقال: «وكان لعزّ الدين فرخشاه فى هذه الوقعة يد بيضاء[3] وهو محبّ للفضل و أهله باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله ؛ «فنظمت» فيه قصيدة، منها:

نصرٌ أنار لملككُمْ برْهانه ... وعلا لذلة شانئيكم شانه

ما أسعد الإسلام وهو مظفر ... وأبو المظفّر يوسفٌ سلطانه

الملكُ مرفوعٌ لكم مقداره ... والعدل موضوعٌ بكم ميزانه

والدّهر لا يأتى بغير مرادكم ... فهل القضاء لأجلكم جرّيانه

وكأنها لله فى أحكامه ... فلكٌ على إيثاركم دَوَرَانه

فخرا بنى أيوب، إن فخاركم ... بذَّ الملوك السابقين رهانه

يكفى حسودكم اعتقالا همة ... فكأنها أشجانه أسجانه

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٢ ـ ٦٥٣ .

(٢) هو الأمير فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أبو السعد عز الدين : خاض العديد من المعارك مع عمه صلاح الدين ، وولاه بعلبك في عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م . كان جوادا متواضعا وشاعرا فصيحا ، وتوفي بدمشق في جمادى الأولي عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٧٣، ٢١٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٩٣) .

(٣) ألمح العماد الأصفهاني إلي دور عز الدين فرخشاه الكبير في هذه المعركة بما ذكره عن منح صلاح الدين له خيمة سيف الدين غازي مكافأة له علي دوره في المعركة . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٩٦ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٦) .

الـــدّينُ،عزّ الـــدين،عزّ بنـــصركم والكفـــر ذلّ بعونـــك أعوانـــه
قـد كـان جيـشكُمُ كبحـر زاخـر واللابـسُون جواشـنا حيتانـه
فطمـى لهلكهـم عليهم بحـركم أسـا وغـرّق فلكـم طوفانـه
فـضّل الملـوك الأكـرمين بفـضله فعـلا زمـانهم البهـيج زمانـه
فى فـضله، فى عدلـه، فى حلمـه صـدّيقه، فاروقـه، عثمانـه
هـو فى الـسماح، وفى اللقاء،عليـه هـو فى العفـاف وفى التقـى سـلمانه
مـن آل{شـادي}[1] الـشائدين لمجـده ببنيـه بيتـا عاليـا بنيانـه
بيـت مـن العليـاء، سـام،{سـامق}[2] يبنـى عـلى كيوانهـا إيوانـه
يـا سـالب التّيجـان مـن أربابهـا ومـن الثنـاء مـصنوعة تيجانـه
والحمـد مـالٌ أنـتم بُذّالـه والمـال حمـدٌ أنـتم خزانـه»[3]

ثم تناول ابن أبى طى تطور أحوال ملوك الموصل و حلب بعد الهزيمة، واتفق فى معظم روايته مع العماد الأصفهانى[4]، فقال: «ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته وواصل لذّته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسُقِطَ فى أيديهم، حين أفرطوا فى تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلدوا»[5].

وذكر ابن أبى طى بعد ذلك بيتين من قصيدة ثالثة نظمها الشاعر الحلبى «ابن سعدان» للتهنئة بانتصار صلاح الدين فى موقعة تل السلطان، فقال: «وقال ابن سعدان الحلبى من جملة قصيدة يهنئ بها السلطان بهذه الكسرة:

---

(١) فى طبعة « دار الجيل» . « شاذي ». (أبو شامة : الروضتين ،ج ١ ، ص ٢٥٦) .
(٢) فى طبعة « دار الجيل» . « شاهق». (المصدر نفسه و الصفحة) .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤ (طبعة دار الكتب) .
(٤) سنا البرق ، ص ٩٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤ .

وما شك قوم حين قمت عليهم غداة التقى الجمعان أنك غالب

ولو لم تقد تلك المقانب لا غتدى لنفسك فى نفس العدو«مقانب[1]»[2]

وصول شمس الدولة تورانشاه إلى الشام:

كان شمس الدولة تورنشاه بن أيوب قد غادر اليمن متوجها إلى أخيه السلطان صلاح الدين فى بلاد الشام[3]، فوصل إليه - حسب تحديد العماد الأصفهانى - قبل معركة تل السلطان بثلاثة أيام[4]، وولاه بعد ذلك صلاح الدين دمشق فى صفر عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م[5]. وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد الأصفهانى فى تاريخ وصول تورانشاه إلى الشام، وولايته لدمشق، وانفرد بتفاصيل باقى روايته عنه، فقال: «وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة {هو}[6]

سبب الظفر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات[7]، وولاّه دمشق وأعمالها و الشام، وأمره أن يكون فى وجه

---

(١) المقْنَبُ: جماعة الخيل والفرسان وهي دون المائة. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١ ، ص ٣١٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٤ .

(٣) أوضحناها من قبل أثناء عرض كتابات ابن أبي طي عن فتح تورانشاه اليمن الأسباب التي دفعته إلي مغادرة اليمن .

(٤) وذكر ابن الأثير أنه وصل في شهر رمضان ، وأوضح ابن شداد وابن واصل أنه وصل بعد انتهاء المعركة في شهر ذي الحجة . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص٩٤ ، ٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٨ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٨) .

(٥) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٠٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ؛ ج ٢ ، ص ٤٩ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٣ .

(٦) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص٢٦٠ (طبعة دار الجيل) ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب)) .

(٧) أورد المقريزي ما ذكره ابن أبي طي عن منح صلاح الدين تورانشاه سرادق ملك لموصل انظر : (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦١) .

الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم»[١].

ثم أوضح ابن أبى طى أثار هزيمة ملوك الموصل و حلب فى مرِ قعة تل السلطان عليهم بعد ذلك ، واتفق مع العماد الأصفهانى فيما ذكره عن أحوال سيف الدين غازى ملك الموصل[٢]، وانفرد بوصف الأحوال فى حلب، فقال: «وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة إلى «بزاعا»، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ثم خرج منها حتى قطع الفرات و صار إلى الموصل. وصار باقى عسكر حلب إلى حلب، فى «سابع شوال»[٣] فى أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء، يتلاوَمُونَ على نقض الأيمان والعهود. وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم، فأخذوا فى الاستعداد للحصار»[٤].

ووقع ما كان يخشاه أهل حلب، حيث قرر صلاح الدين عقب انتصاره فى موقعة تل السلطان حصار حلب، ولكنه ما لبث أن عدل عن رأيه مؤقتا، وفكر فى تنفيذ مخطط آخر، رأى أن نتائجه تساعده مستقبلا فى ملك حلب، وهذا المخطط انفرد بذكره ابن أبى طى، فقال: «وجاء السلطان وخيّم عليها (حلب) أيّاما، ثم قال: الرّأى أن نقْصد ما حولها من الحصون و المعاقل و القلاع فنفتحها، فإنّا إذا فعلنا ذلك ضعُفت حلب وهان أمرها فصوّبوا رأيه[٥]»[٦].

فقام صلاح الدين بحصار ثلاثة من هذه الحصون، ونجحت قواته فى ضمها إلى أملاك

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٣) لم يكن ابن أبي طي دقيقا في تحديد هذا التاريخ ، حيث كانت معركة تل السلطان قد بدأت في « العاشر من شوال » ، وتاريخ هذه الأحداث التي ذكرها ابن أبي طي وقعت بعد المعركة . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٩٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٥) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٥) أورد ابن كثير المخطط الذي ذكره ابن أبي طي . انظر : (البداية ، ج١٢، ص ٨١٨) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ .

الدولة الأيوبية فى الشام.

وكانت أولى هذه الحصون هى «بزاعة»، فحاصر صلاح الدين قلعتها، ثم تسلمها فى الثانى والعشرين من شوال عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م، وذلك حسب رواية العماد الأصفهانى وابن الأثير[١]، وأوضح ذلك أيضا ابن أبى طى، وأضافت روايته اسم الوالى الذى عينه عليها صلاح الدين، فقال: «فنزلوا على بزاعة، فتسلّمها بالأمان وولاّها «عز الدين خشترين الكردي»[٢].

ثم سار صلاح الدين إلى «منبج»، وملكت قواته قلعتها عنوة من واليها «قطب الدين ينال بن حسان»، وذلك فى آخر شوال من السنة، و كانت قلعة منبج تحتوى على الكثير من الذخائر التى صارت ملكا لصلاح الدين[٣]، وقد أمدنا ابن أبى طى بوصف تفصيلى لهذه الذخائر، واتفق فى تقدير جملة أموال ابن حسان مع العماد الأصفهانى[٤] فقال: «لما ملك السلطان «منبج» وتسلم الحصن صعد إليه و جلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره ؛ فكان فى جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية و الأسلحة و الذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار[٥]، فَحَانَ من السلطان التفاته فرأى على الأكياس و الآنية مكتوبا «يوسف»، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحُبه ويؤثره اسمه يوسف كان

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٦ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٣) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٩٩؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩، ص ١٣٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٩ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ (رواية العماد) ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١، ق ١ ، ص ٦١ .

(٥) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي التي وصف فيها حجم الفضة والآنية والأسلحة . انظر : (السلوك : ج ١، ق ١ ، ص ٦١ .) .

يدخر هذه الأموال له. فقال السلطان: أنا يوسف وقد أخذت ما خُبئ لى فتعجب الناس من ذلك»[١].

وبعد سيطرة صلاح الدين على «منبج» سارت قواته نحو حصن «عزاز» ، وهو يعد من أحصن القلاع وأمنعها، ولهذا اهتم صلاح الدين بحصاره، ودفعه إلى ذلك ما ذكره العماد الأصفهانى عن خوفه من قيام الأمراء فى حلب بتسليمه إلى الصليبيين، فحاصره حصارا شديدا[٢]

وذكر ذلك أيضا ابن أبى طى فقال: «ولما فرغ من منبج نزل على «عزاز» ونصب عليها عدة مجانيق، وجد فى القتال، وبذل الأموال»[٣].

وفى أثناء حصار صلاح الدين حصن عزاز تعرض لهجوم كاد أن يودى بحياته، نفذته قوات من فرقة الإسماعيلية التى يقودها «راشد الدين سنان». وقد عرض كثير من المؤرخين تفاصيل هذا الهجوم، ولكن دون أن يشيروا إلى أسبابه[٤]، وانفرد ابن أبى طى بتوضيح المخطط الذى دبره الأمراء فى حلب مع ابن سنان لوقف زحف صلاح الدين عن القلاع القريبة من حلب.

فقال: «لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن مَنْ بحلب بخروج ما فى أيديهم من المعاقل و القلاع، فعادوا إلى عادتهم فى نصب الحبائل للسلطان. فكاتبوا سنَانا صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحَملوه على إنفاذ من يفْتك بالسلطان

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٦ .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٩٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٦ .

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق ، ص ١٠٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص١٣٧ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٨ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٨٠ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

فأرسل، لعنة الله، جماعة من أصحابه فجاءوا بزى الأجناد ودخلوا بين المقاتلة و باشروا الحرب و أبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلّهم يجدون فرصة ينتهزونها»[١].

ثم وصف ابن أبى طى بأسلوبه تفاصيل الهجوم على صلاح الدين، واتفق فى مضمون روايته اتفاقا كبيرا مع كتابات العماد الأصفهانى[٢]، مما يؤكد أن كتاباته كانت مصدرا رئيسا لابن أبى طى فى هذا الموضوع.

قال ابن أبى طى: «فبينما السلطان يوما جالس فى خيمة «جاولي»[٣]، والحرب قائمة و السلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية و ضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزا خائفا من الحشيشية، لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه ؛ فلم تصنع ضربة الحشيشى شيئا لمكان صفائح الحديد،وأحس الحشيشى بصفائح الحديد على رأس السلطان {فَسبح}[٤] يده

بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه ؛ فتتعتع السلطان لذلك ولما رأى الحشيشى ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضعه على الأرض وركبه لينحره ؛ وكان مَنْ حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم. وحضر فى ذلك الوقت «سيف الدين يازكوج»، وقيل أنه كان حاضرا، فاخترط سيفه وضرب الحشيشى فقتله».

ثم قال ابن أبى طى: «وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان، فاعترضه الأمير

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٣) جاولي : هو مقدم الطائفة الأسدية . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٧) .

(٤) في طبعة « دار الجيل» . « فمد ». (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٨) .

«{داود}[١] بن منكلان الكردي» وضربه بالسيف، وسبق الحشيشى إلى ابن منكلان فجرحه فى «جبهته»[٢]، و قتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشى بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل فى سهم الأمير «على بن أبى الفوارس» فهجم على الباطنى ودخل الباطنى فيه ليضربه فأخذه على تحت إبطه وبقيت يد الباطنى من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح «علي»: اقتلوه واقتلونى معه، فجاء «ناصر الدين محمد بن شيركوه»، فطعن بطن الباطنى بسيفه، و ما زال يُخضْخضُه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبى الفوارس»[٣].

ثم قال ابن أبى طى: «وخرج آخر من الحشيشية منهزما، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود، خال السلطان، فتنكبَ الباطنى عن طريق شهاب الدينُ فقصده أصحابه و قطعوه بالسيوف. وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت فى الاحتراس و الاحتراز، وضرب حول سرادقه {مثال «الخركاه»[٤] ونصب له فى وسط سرادقه}[٥] برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، و بطلت الحرب فى ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان. واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته»[٦].

وواصل صلاح الدين بعد ذلك حصاره لحصن عزاز حتى ملكه حسب رواية العماد

---

(١) ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٢) في رواية العماد : « جرحه في جنبه » . (سنا البرق ، ص ١٠٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٠ .

(٤) الخركاه : وهي بيت من خشب مصنوع علي هيئة مخصوصة ، ويغشى بالجوخ ونحوه ، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٨) .

(٥) ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (أبو شامة : ، ج١ ، ص ٢٥٨) .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٠ ـ ٦٦١ (طبعة دار الكتب) .

الأصفهانى فى حادى عشر ذى الحجة عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م[١]، واتفق معه ابن أبى طى فى ذلك، كما أضاف بعض التفاصيل حول أحوال عزاز قبل ويعد ملك صلاح الدين لها، فقال: «وأخذ فى قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية و ثلاثين يوما حتى عجز من كان فيها و سألوه الأمان، فتسلمها حادى عشر ذى الحجة، و صعد إليها و أصلح ما تهدّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقى الدين عمر. وكانت عزاز أولا «للجفينة» غلام نور الدين، فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك»[٢].

حصار صلاح الدين لحلب (الحصار الثانى):

قرر صلاح الدين حصار حلب بعد أن نفذ مخططه الذى ذكره ابن أبى طى من قبل فاستولى على ثلاثة من أهم الحصون و القلاع التى تقع بالقرب منها، ودفعه إلى ذلك أيضا سبب آخر انفرد به ابن أبى طى، فقال: «ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب، خامس عشر ذى الحجة»[٣].

ثم حدد ابن أبى طى الموقع الذى استقر فيه صلاح الدين، والخطة التى اتبعها أثناء الحصار. واتفق فيها مع العماد الأصفهانى[٤]، فقال: «وضربت خيمته على «رأس الياروقية»[٥] فوق جبل جوشن و جبى أموالها وأقطع ضياعها». وانفرد ابن أبى طى بباقى

(١) المصدر السابق، ص ١٠٢ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩ ، ص ١٣٧ ؛ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٤٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١، ص ٦١ ؛ الحنبلي : المصدر السابق، ص ١١٤ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦١ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٣ . ولمزيد من التفاصيل حول حصار حلب انظر . (ابن الأثير : الكامل، ج ٩ ، ص ١٣٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ،ج ٣ ، ص ٢٩ـ٣٠) .

(٥) اليَارُوقيَة : محلة كبيرة بظاهر حلب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٥ ، ص ٤٢٥) .

تفاصيل الخطة، فقال: «وضيق على أهلها، ولم يفسح لعسكره فى مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شئ أو يخرج منها أحد[١]»[٢].

وتصادف فى ذلك الوقت أن كان الأمير «سعد الدين كمشتكين» ـ المدبر لأمور الملك الصالح إسماعيل ـ خارج حلب، ولهذا راسل صلاح الدين لكى يأذن له بالدخول، فأذن له، ورتب لتنفيذ ذلك بأن تم أخذ رهائن من حلب و من جانب صلاح الدين، وكان العماد الأصفهانى أحد هؤلاء الرهائن، وكتب بعد ذلك تفاصيل هذه الأحداث[٣]، وأخذها عن ابن أبى طى، وصرح باعتماده عليه، ولكنه لم يلتزم بنفس أسلوبه.

قال ابن أبى طى: « وكان سعد الدين كمشتكين فى «حارم»، وكانت إقطاعه فى يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها . وكان سبب خروجه إليها أنّ السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجا فى حارم، و خاف أن يجرى بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم.

فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول: لو فسح لى فى الدخول إلى حلب لسارعت فى الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضا الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجا، وقد بلغنى أمور ولا بدّ من طلبى من الملك الناصر ليأذن لى فى الصيرورة إليكم، فإن الذى قد حصل عندى لا يمكننى الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان فى الإذن له فى الدخول إلى حلب، فأذن له ؛ و طلبوا الرهائن منه، فأنفذ السلطان إليهم رهينة «شمس الدين ابن أبى المضاء الخطيب» و«العماد كاتب

---

(١) تطابقت رواية المقريزي عن الخطة التي اتبعها صلاح الدين في حصار حلب مع كتابات ابن أبي طي . انظر : (السلوك ، ج ١ ، ق ١، ص٦٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

الإنشاء»، و أنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة«نصرة الدين ابن زنكي»[١] ثم قال ابن أبى طي: «وحكي«العماد الكاتب»قال:لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمى[٢] وجعلنا فى بيت ومنع منا غلماننا، ولم يُحضر لنا طعام ولا مصباح، وبتْنا فى أنكد عيش. وفى تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب، فلما أصبحوا أحضرت نا وابن أبى المضاء إلى الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه

«عز الدين مسعود بن مودود»[٣]، وجماعة من أرباب الدولة، وكان صحب الكلام «العدل بن العجمي» فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحا عنى، ويوهم الجماعة أنى وأنى .

وما درى الغمرُ بأنى امرؤ ... أميز التبر من الترب

قد عارك الأهوال حتى غدا ... بين الورى كالصارم العضب

قد راضه الدهر، فلوْ أمَّه ... بخطبه ما ريع لخَطب[٤]

ثم قال ابن أبى طى على لسان العماد الأصفهانى: «وعرضت نسخة اليمين علينا وصرفنا ولم يُلتفت إلينا». وأورد ابن أبى طى بعد ذلك تطور الموقف بعد دخول الأمير

---

(١) هو نصرة الدين إبراهيم بن نصرة الدين أمير أميران بن زنكي : ولاه الملك العادل نور الدين محمود « حران » في عام ٥٦٦ هـ / ٧٠ ـ ١١٧١ م . وكان الدكتور « محمد حلمي أحمد » محقق كتاب « الروضتين » قد خلط بينه و بين والده « نصرة الدين أمير أميران » ، وأعطي إشارة في الهامش للرجوع إلي الأحداث التي شارك فيها ، وهي تخص والده الذي توفي في عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ، أي قبل وقوع هذه الأحداث بأكثر من عشر سنوات . (أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٢ ، هامش (٢) ، طبعة دار الكتب ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول و الملوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٢٢؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٦٧).

(٢) من الواضح أن ابن أبي طي أضاف هذا الجزء من رواية العماد الأصفهاني ، والذي كان « البنداري» قد أختصره من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني .

(٣) أضاف العماد الأصفهاني تفاصيل أخري في هذا الجزء . انظر : (سنا البرق ، ص ١٠٤) .

(٤) أضاف ابن أبي طي هذا الجزء من رواية العماد الأصفهاني .

كمشتكين إلى حلب، وعودة العماد إلى صلاح الدين، فقال: «فلما صارا إلى السلطان و أخبراه بما جرى فى حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق «نصرة الدين» وقاتل أهل حلب. ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى و سبعين وخمسمائة»[١].

واستمر حصار صلاح الدين لحلب حتى العشرين من المحرم عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦م، ثم وافق على إنهاء الحصار وقبل عقد الصلح معه ومع ملك الموصل[٢]، وهذه التفاصيل لم تصلنا من كتابات ابن أبى طى، ووجدنا له بعد ذلك ما ذكره عن قيام صلاح الدين بمنح قلعة عزاز إلى أخت «الملك الصالح إسماعيل»، واتفق فى ذلك مع ابن الأثير[٣]، وأضاف ما ذكره عن ذخائر عزاز، فقال: «لما تم الصلح وانعقدت الأيمان،عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان و طلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته، وكانت صغيرة، فأخرجت إليه فأكرمها السلطان إكراما عظيما،وقدّم لها أشياء كثيرة، و أطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح و ميرة وغير ذلك»[٤].

ويعقد الصلح بين صلاح الدين و ملوك حلب والموصل انتهى ما كان بينهم من صراع، والذى كان قد استمر لمدة أربعة أشهر متتالية منذ معركة «تل السلطان» فى

العاشر من شوال عام ٥٧١ هـ م ١١٧٦ م، مرورا بملك صلاح الدين لأهم القلاع والحصون القريبة من حلب، تمهيدا لحصاره لها بعد ذلك، والذى استمر حتى عقد الصلح فى المحرم عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م.

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦١ ـ ٦٦٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٦) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٧ . وانظر أيضا : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٨ .

وقد لاحظنا من خلال تحليل كتابات ابن أبى طى التى تناول فيها هذه الأحداث، ما ذكرناه من قبل طيلة هذا الفصل عن اهتمام ابن أبى طى بكتابات المؤرخ العماد الأصفهانى باعتباره مصدرا مهما من مصادر تاريخ الدولة الأيوبية، و لذلك اعتمد عليه كثيرا، وقد صرح ابن أبى طى باعتماده على كتاباته عند ذكره لأحد قصائده التى مدح فيها انتصار صلاح الدين فى موقعة تل السلطان، كذلك اعتمد ابن أبى طى على كتابات العماد أثناء حصار صلاح الدين حلب لأنه كان أحد المشاركين فى هذه الأحداث، هذا فضلا عن بعض الأحداث الأخرى التى أشرنا خلالها إلى اتفاق كتاباته مع كتابات العماد. كذلك أنفرد ابن أبى طى ببعض التفاصيل التى توفرت لديه خاصة الأحداث التى تتعلق بتاريخ حلب.

وتبقى من كتابات ابن أبى طى عن أحداث عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م حادثتان انفرد بذكرهما. و تناول فى الحادثة الأولى، علاقة «شمس الدولة تورانشاه» - نائب صلاح الدين فى دمشق[١] - مع بلدتى «بصري»، و صرخد[٢]، التابعتين لدمشق بعد وفاة أميرهما «صديق بن جولة»[٣] فى ذلك العام.

وتناول ابن أبى طى العلاقة بين تورانشاه والأمير الجديد الذى خلف صديق بن جولة فى ولاية بلاده، فقال: «وفيها (٥٧١ هـ) قتل صديق بن جولة صاحب بُصرى وصَرْخد، قتله ابن أخيه، وملك بعده بُصرى وصرخد «شهورا»، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان

(١) تولى تورانشاه دمشق - حسب رواية العماد الأصفهاني - في صفر عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م، وإن كان ابن أبي طي قد أورد هذه الحادثة في أحداث عام ٥٧١ هـ م ١١٧٦ م إلا أنه أشار بعد ذلك إلي أن تدخل تورانشاه في أمور بصري كان بعد عدة شهور من وفاة واليها في عام ٥٧١ هـ. (سنا البرق، ص ١٠٧).

(٢) صَرْخَدُ : بلد ملاصق لحوران من أعمال دمشق. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١).

(٣) هو شمس الدين صديق بن جاولي : كان من أوائل من كاتب صلاح الدين في مصر ليحثه علي القدوم إلي بلاد الشام، كذلك كان أول من استقبله عند وصوله إلي بلاد الشام في ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ م ١١٧٤ م، و أعلن ولائه له، وأضاف صلاح الدين « صرخد » إلي أملاكه (العماد الأصفهاني : سنا البرق، ص ٨١؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩).

وحلف له على ما يريد من إقطاع ؛ واقترح شمس الدولة أن يكتب

هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه و التصرف فى القول، فلم يستقص فيها وجوه التأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوّل عليه شمس الدولة فى اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أيام {بعد أن قتله}[1]»[2].

أما الحادثة الثانية التى أوردها ابن أبى طى فى عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م فتتعلق بالعلاقة بين الأمير «سعد الدين كمشتكين» - المدبر لأمور الملك الصالح إسماعيل فى حلب - وإحدى البلاد التابعة لحلب، وهى منطقة «تل خالد»[3]، فقال: «وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين {فانهد}[4] إليه من حلب عسكرا فحاصروه أياما، وسلم الحصن، وصلحت حاله[5]»[6].

وبالنسبة لأحوال الدولة الأيوبية فى بلاد الشام فى عام ٥٧٢ هـ/ ٧٦ - ١١٧٧ م، فقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى ما يوضح انتهاء الصراع بين صلاح الدين و«راشد الدين سنان» مقدم فرقة الإسماعيلية فى الشام، وأيضا بينه وبين «سيف الدين غازي» ملك الموصل و أمراء حصن كيفا و ماردين.

---

(١) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٠ (طبعة دار الجيل) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب)) .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب) .

(٣) تل خالد : قلعة من نواحي حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١) .

(٤) في طبعة « دار الجيل» . « فأنفذ » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٠).

(٥) ابن العديم هذا الموضوع ضمن أحداث عام ٥٧٢ هـ ، وأورد عنه مزيدا من التفاصيل . انظر : (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣١) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب) .

أولا ـ عقد الصلح بين صلاح الدين وراشد الدين سنان:

كان صلاح الدين قد قام بحصار حصن «مصياف»[١]، أقوى قلاع الإسماعيلية، فى المحرم عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م، ردا على هجومهم عليه أثناء حصاره قلعة عزاز فى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م[٢]، وفى ذلك الوقت تعرضت منطقة «البقاع» لهجوم صليبى بقيادة «ريموند الثالث» أمير طرابلس، و«بلدوين الرابع» ملك بيت المقدس،

فتصدى لهم الأمير شمس الدين ابن المقدم والى بعلبك، وأسر منهم نحو مائتين[٣]، وأتى بهؤلاء الأسرى إلى صلاح الدين أثناء الحصار.

وقد أوضح العماد الأصفهانى وكان مصاحبا لصلاح الدين أثناء الحصار أن ذلك كان أحد الأسباب التى دفعته إلى إنهاء الحصار، فقال: «و أحضرهم (الأسرى) عندنا ونحن على مصياف، ولولا هذا الحادث لم يصرف عنها الأحداث»[٤]، وفى رواية أخرى له أوردها أبو شامة قال العماد: «و أحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث»[٥].

ثم أورد أبو شامة عقب ذكره رواية العماد مباشرة جزءا من رواية ابن أبى طى عن هذا الموضوع، وعرض فيها ابن أبى طى لأحد الأسباب التى دفعت صلاح الدين إلى إنهاء الحصار وعقد الصلح. وقد بدت رواية ابن أبى طى عند الوهلة الأولى لقراءتها بعد رواية

---

(١) مصياب : أو مصياف حصن يقع بالقرب من طرابلس على الساحل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص١٤٤) .

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٩ .

(٣) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ؛ العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٠٥ـ١٠٦ ؛ ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٥ـ١٠٦.

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ (رواية العماد) .

العماد كأنها تكملة وتأييد لما ذكره العماد عن خبر الغزو الصليبى للبقاع وأثره على عقد الصلح بين صلاح الدين وسنان، وفى هذا إشارة إلى أن الجزء الذى اختصره أبو شامة من رأى ابن أبى طى كان قد تناول فيه أيضا ما ذكره العماد عن هذا الموضوع ثم شرح ابن أبى طى بأسلوبه، أهمية إنهاء صلاح الدين الحصار، واعتبر هذا السبب أهم الأسباب[١]، فقال: «وهذا أكبر الدواعى فى مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج فى الشام الأعلى وهو بعيد عنه فربما ظفروا من البلاد بطائل ؛ فصالح سنانا وعاد إلى دمشق»[٢].

وقد علق د. نظير سعداوى على تحليل ابن أبى طى لسبب إنهاء الحصار، وأشاد بموضوعيته فى هذا الرأى لأنه لم يعمد إلى إلجاء ذلك لفشل صلاح الدين فى الحصار[٣] ونعتقد أن ابن أبى طى كتب هذا الرأى لأنه اعتمد فيه على رأى العماد الأصفهانى الذى كان معاصرا لتلك الأحداث من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه حسب ما ذكرنا من قبل عن الكراهية التى كانت بين الشيعة الإمامية والإسماعيلية، ما كان سيكتب رأيا يشعر فيه الإسماعيلية بقوتهم.

ثانيا ـ وصول رسل الموصل وحصن كيفا وماردين:

تناولت كتابات ابن أبى طى فى أحداث عام ٥٧٢ هـ / ٧٦ ـ ١١٧٧ م ما يشير إلى حسن العلاقات بين صلاح الدين وسيف الدين غازى ملك الموصل، و محمد بن قرا أرسلان نور الدين أمير حصن كيفا، وقطب الدين إيلغازى بن نجم الدين بن أرتق أمير ماردين، حيث أورد خبر وصول رسل من هذه الإمارات إلى دمشق حاملين الهدايا إليه،

(١) هناك أيضا أسباب أخرى لعقد الصلح بين صلاح الدين و سنان ، لمزيد من التفاصيل انظر (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٠٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٨) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ ـ ٦٧٠ .

(٣) المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٥ ـ ٦ .

وكان هؤلاء الرسل قد وصلوا - كما أوضح العماد الأصفهانى - لتأكيد موافقة بلادهم على ما تضمنه عقد الصلح الذى أقره صلاح الدين مع الملك الصالح إسماعيل بعد إنهاء حصاره لحلب فى المحرم من ذلك العام، حيث كان صلاح الدين قد جعل هذا الصلح صلحا عاما شمل هؤلاء الملوك والأمراء، وأرسل إليهم ليقروا بالموافقة على شروط الصلح[١]، واتفق ابن أبى طى مع العماد اتفاقا كبيرا، فقال: «وصل رسول الموصل القاضي» عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزورى «بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، و أكرمه «السلطان»[٢] واحترمه ؛ وقدم بعده «رسول»[٣] نور الدين قرا أرسلان و«رسول»[٤] صاحب ماردين، بهدايا، واجتمعوا فى دمشق، و خرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، فأسر رسول صاحب الحصن[٥] ولم يزل فى الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه و أحسن إليه»[٦].

وتناولت كتابات ابن أبى طى فى عامى ٥٧٣، ٥٧٤ هـ / ٧٧ - ١١٧٩ م أحداثا تتعلق بعلاقات صلاح الدين مع الصليبيين. فأورد أولا قصيدة للشاعر «ابن سعدان الحلبي» كتبها لمدح غارة صلاح الدين على «عسقلان»، ولتهوين أمر هزيمته فى موقعة الرملة.

وكان صلاح الدين قد غادر مصر متجها إلى بلاد الشام فى جمادى الأولى عام٥٧٣ هـ / ١١٧٧م، وسار إلى «عسقلان» وأغار عليها، ولم يجد من يقاومه بها من الصليبيين ، حيث

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، ١٢٢.

(٢) لم يكن ابن أبي طي دقيقا هنا عندما ذكر استقبال السلطان (صلاح الدين) رسول الموصل ، لأن صلاح الدين كان في ذلك الوقت في مصر ، وذلك حسب رواية العماد الأصفهاني الذي كان معه في مصر ، وإنما كان « الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه » نائب صلاح الدين في دمشق هو من قام باستقبال هؤلاء الرسل . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٢٢) .

(٣) يعرف هذا الرسول « بالمظفري » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) هو « الضياء الرحبي » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٥) وأسر أيضا رسول أمير ماردين (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٦٩١ - ٦٩٢ .

كانوا قد جمعوا الكثير من قوات مملكة بيت المقدس وإمارتى طرابلس وإنطاكية

وأقاموا حصارا قويا على حصن حارم التابع للملك الصالح إسماعيل، فسبى وأسر صلاح الدين الكثير منهم، وبعد نجاح غارته على عسقلان سار إلى «الرملة»، وهناك فوجئ بهجوم القوات الصليبية عليه، فأسروا وقتلوا الكثير من قواته، ونجح هو فى العودة إلى مصر[١].

قال ابن أبى طى: «وقال «ابن سعدان الحلبي» يمدح السلطان، ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة[٢]، من قصيدة :

قرّبت من عسقلان كل نائبة ... باتت تقل بوكاف من «الأسل»[٣]

فاض النجيع عليها وهي «مُمْحِلة»[٤] ... فأصبحت مرتعا للخيل و الإبل

قل للفرنجة الخذلى: رُويدَكم ... بالثأر أو تخرج الشعرى من الحمل

ترقبوها من الفوار طالعة ... خوارق الأرض تمحو رونق الأصل

كأننى بنَواصيهنّ يقدمها ... كاس من الجود عريان من النجل

حَسْب العدايا صلاح الدين حسبهم ... أن يقرفوك بجرح غير مندمل

وهل يخاف لسان النّحل ملتمسٌ ... مرّت على أصبعيه لذة العسل»[٥]

---

(١) وليم الصوري: المصدر السابق،ج٤، ص٢١١-٢٢٢؛العماد الأصفهاني:المصدر السابق،ص ١٢٩-١٣٢؛ابن الأثير:المصدر السابق،ج٩،ص١٤١-١٤٢؛ابن شداد:المصدر السابق،ص٥٣؛ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٦٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٤ .

(٢) المقصود هنا كسرة « الرملة » ، و قد حذف أبو شامة ما ذكره ابن أبي طي عنها .

(٣) الأسَل : الرمح ، ويطلق أيضا علي نبات له أغصان كثيرة بلا ورق .(ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ١٤٣ - ١٤٤) .

(٤) ممحلة : أي لا مرعى بها ولا كلأ . (المصدر،نفسه ج ١٣ ، ص ٣٩) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٤ .

ثم ذكر ابن أبى طى فى أحداث عام ٥٧٤ هـ / ٧٨ ـ ١١٧٩ م المفاوضات التى جرت بين صلاح الدين والصليبيين بشأن هدم حصن «بيت الأحزان»[١]، و انفرد

بتفاصيل هذه المفاوضات فى هذا العام، حيث كان العماد الأصفهانى وابن الأثير قد أشاروا إلى هذه المفاوضات وذكروا المبلغ الذى عرضه صلاح الدين فى مقابل هدم الحصن، عند ذكرهم خبر هدم صلاح الدين للحصن فى ربيع الأول عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩ م[٢].

قال ابن أبى طى عن مفاوضات هدم الحصن: «كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج فى هدمه فأجابوا أنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرمنا عليه. فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن «للداوية»[٣] وكانوا {يقدّون}[٤] من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين. فأشار تقى الدين{عمر}[٥]على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه ففعل ذلك[٦]»[٧].

---

(١) شيدت مملكة بيت المقدس هذا الحصن في الموضع الذي يعرف « بمخاضة يعقوب » علي بعد عشرة أميال من بانياس ، و بدأ بناؤه في أكتوبر ١١٧٨ م / ٥٧٤ هـ ، واستمر حتى إبريل عام ١١٧٩ م / ٥٧٤ هـ ، وشكل هذا الحصن خطرا كبيرا علي المسلمين لوقوعه بالقرب من دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ ؛ العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٥٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٤٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٢) .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٤٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٢ ؛ المقريزي:المصدر السابق،ج١، ق ١ ، ص ٦٩ .

(٣) أكد ذلك « وليم الصوري » و أوضح أن سيطرة « فرسان المعبد » (الداوية) علي هذا الحصن كان بحكم سيطرتهم علي كل المنطقة المحيطة به . (الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٣٧) .

(٤) في « طبعة دار الجيل » . « يقوون » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) .

(٥) ساقطة من « طبعة دار الجيل » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٦) أورد ابن كثير معظم رواية ابن أبي طي عن مفاوضات هدم حصن بيت الأحزان في عام ٥٧٤ هـ / ٧٨ ـ ١١٧٩ م . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٢٧ ـ ٨٢٨) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢١ (طبعة دار الكتب) .

ووصلنا من كتابات ابن أبى طى فى عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ ـ ١١٨٠ م بعض أحداث الدولة الأيوبية فى الشام، ومن ذلك علاقة السلطان صلاح الدين مع سلاجقة آسيا الصغرى، وكذلك أحد المعارك التى انتصر فيها على الصليبيين، وأخيرا أشار ابن أبى طى إلى أحوال حلب.

علاقة صلاح الدين مع سلاجقة آسيا الصغرى:

كان السلطان السلجوقى « قلج أرسلان»[١]، قد راسل صلاح الدين فى طلب قلعة رَعْبَان[٢] وحصن «كَيْسُون»[٣]، باعتبار أنهما كانا ملكا له قبل استيلاء الملك العادل نور الدين محمود عليهم، فرفض صلاح الدين طلبه، فقام قلج أرسلان بحصار قلعة رعبان.

وقد عرض «العماد الأصفهاني» تفاصيل هذا الجزء[٤]، واتفق معه ابن أبى طى فى ذكر هذه الأحداث اتفاقا كبيرا، فقال: «واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع فى أخذ رَعْبَان وكَيْسُون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه ويدعى أن نور الدين بن زنكى اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بهما، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر قليج أرسلان فغضب وسير عسكرا إلى رعبان فحاصرها ؛ وسمع السلطان فندب تقى الدين عمر فى ثمانمائة فارس فسار. فلما قارب رَعْبَان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتى فارس، و تقدم عسكره، وسار حتى

---

(١) هو قلج أرسلان الثاني بن مسعود بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي : كان حاكما لقونية وملطية وغيرها من بلاد بأسيا الصغرى ، واستمرت مدة حكمه نحو تسع وعشرين سنة ، و توفي في عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م.(ابن الأثير:الكامل،ج٩،ص٢٢٢؛سعيد عاشور:الحركة الصليبية،ج٢،ص١٠٣٠).

(٢) رَعْبَانُ: قلعة بين حلب وسُميَساط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣، ص ٥١) .

(٣) كيسون : ويقال لها أيضا « كَيْسُومُ » وهي قرية من أعمال سميساط ، وبها حصن كبير . (المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٩٧) .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٧. وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩، ص ١٤٨؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلا فرآهم قد سدوا الفضاء»[١].

ثم عرض ابن أبى طى أحداث المعركة، وانفرد بكتاباتها، و اختصر هذه الأحداث كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن المعركة[٢]، فقال: «وهم {فَادّونَ}[٣]، آمنون، وَادِعُون فقال تقى الدين لأصحابه: هؤلاء على ما ترون من الطمأنينة والأمن و الغفلة، وقد رأيت أن تحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق فى جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فإنهم لا يثبتون لنا فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحدا من أصحابه إلى باقى عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا وأن يجعل فى كل طُلْب قطعة من الكوسات والبوقات فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتها و بوقاتهم، وجدوا فى السير حتى يلحقوا به ففعلوا ما أمرهم ثم إنه حمل فى عسكر قليج أرسلان وصرخ أصحابه فى جوانبه وكان عدة عسكر قليج أرسلان «ثلاثة آلاف فارس»[٤] فلما سمعوا الضجة وحسنّ الكُوساتو البوقات،

وشدة وقع حوافر الخيل و جلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد، هالهم ذلك و ظنوا أنهم قد فوجئوا بعالم عظيم فلم يكن لهم إلا أن جالوا فى كواثب خيولهم عريا، وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها وأكثر تقى الدين فيهم القتل و الأسر، وحصل على جميع ما تركوه فلما أصبح جمع المأسورين ومَنْ عليهم بأموالهم و كراعهم، وسرحهم إلى بلادهم». ثم قال: «وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل السلطان فى

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٥ (طبعة دار الكتب) .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٤٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٣) في « طبعة دار الجيل » . « قارّون ». (أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩) .

(٤) أختلف تقدير ابن أبي طي لحجم قوات قلج أرسلان اختلافا كبيرا عن غيره من لمؤرخين فذكر « العماد » أن قواته بلغت عشرين ألفا ، وذكر « ابن الأثير » أنها كانت ثلاثين ألفا .وفي حقيقة الأمر فنحن نميل إلي ترجيح رأي ابن أبي طي لأنه توفرت لديه معلومات أكثر عن تفاصيل المعركة ، ولأنه من غير المتوقع أن يهزم « ألف » « عشرين أو ثلاثين ألفا» . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٤٨) .

اليوم الذى كسر فيه السلطان الفرنج على «مرج عيون» فتوافت البشارتان إلى البلاد[١]»[٢].

كذلك أمدنا ابن أبى طى فى كتاباته عن أحداث عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ ـ ١١٨٠ بتفاصيل أحدى المعارك التى خاضها صلاح الدين مع الصليبيين، وهى:

معركة مرج عيون:

بدأ ابن أبى طى كتاباته عن معركة «مرج عيون»[٣] بذكر قصيدة أرسلها الشاعر «ابن التعاويذي»[٤] إلى صلاح الدين، ليهنئه بنصره فى هذه المعركة.

وقد تبين لنا من خلال قراءة هذه القصيدة ومقارنتها مع نظيرتها التى أوردها «ياقوت فى معجم الأدباء»، خلو هذه القصيدة من أية إشارة تدل على أنها كتبت ـ كما

ذكر ابن أبى طى ـ عن موقعة «مرج عيون»[٥]، و أشار إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه ابن أبى طى المؤرخ أبو شامة عند ذكره رواية ابن أبى طى[٦].

---

(١) اتفقت كتابات ابن كثير مع الجزء الأخير من رواية ابن أبي طي الذي وصف فيه هزيمة قوات قلج أرسلان ، وفي ذكره اتفاق توقيت هذه المعركة مع معركة مرج عيون . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣١) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٦ .

(٣) مَرْجُ عُيُون : يقع بسواحل الشام بين نهر الليطاني والمجري الأعلى لنهر الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٠١ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ٦٧٧) .

(٤) هو محمد بن عبيد الله أبو الفتح المعروف بابن التعاويذي وبسبط ابن التعاويذي : عمل كاتبا بديوان الإقطاع ببغداد ، وكان شاعر العراق في وقته ، وله ديوان شعر يقع في مجلدين وكتاب « الحَجَبَة و الحُجَّاب » يقع في مجلد كبير . توفي في شوال عام ٥٨٣ هـ / ٨٧ ـ ١١٨٨ م . (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ، ٣٧٤) .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧ .

قال ابن أبى طى: «وقد مدح ابن التعاويذى السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد[١] يذكر فيها وقعة «مرج عيون» ، يقول فيها :

كـاد الأعـادى أن يُـصيبَك كَيْـدُهَا ... لـو لم تكـذْك برَأيهـا المَـأفون

تُخْفـى عَـدَاوتها وراء بَـشَاشَة ... فتَـشِفّ عـن نظـر لهـا مَـشْفون

دفنـت حَبائـل مَكْرهـا فرَدَدْتهـا ... {تـدوي}[٢] بغـيظ صُـدُورهَا المَـدْفُون

وَعَلمْـت مـا أخْفـوْا كـأن قلُـوبَهُم ... أفـضَتْ إليـك بـسِرهَا المَخْـزُون

كمنـوا، وكـم لـك مـن كمـين سعادة ... فى الغيـب،يظهر مـن وراء كمـين[٣]

فهـوَتْ نُجُـومُ سُـعُودِهِم وَقـضَى لهـم ... بـالنّحْس «طـائرهُم بمـرج عيـون[٤]»[٥]

ثم تناول ابن أبى طى معركة «مرج عيون»، واتفق مع «العماد الأصفهاني» فى ذكر الأحداث التى سبقت المعركة[٦]، فقال: نزل السلطان على «تل القاضي» بابلياس على المرج الذى يعرف «بمرج عيون»، وأنفذ فى ثانى المحرم قطعة من عسكره مع «عز الدين فرخشاه» لشن الغارة على بلاد الفرنج فلما أصبح ركب{يستوكف}[٧] أخبار فرخشاه. فما هو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعى هاجَّة على وجوهها من الغياض والأودية فقال:هذه غارة فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب،

---

(١) كان ابن التعاويذي قد مدح السلطان صلاح الدين بثلاث قصائد أنفذها إليه من بغداد ، وكان من ضمنهم هذه القصيدة التي كتبها ليعارض بها قصيدة « أبي المنصور علي بن الحسن المعروف بصُرّدُرّ » . (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٦٦) .

(٢) في معجم الأدباء : « تَبْلي» . (المصدر نفسه ، ص ٣٦٨) .

(٣) لم يرد هذا البيت في القصيدة التي أوردها ياقوت . (المصدر نفسه ، ص ٣٦٦-٣٦٨) .

(٤) هنا خطأ ابن أبي طي حيث ختم ياقوت وأبو شامة هذا البيت بجملة « طائر جدك الميمون » انظر : (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٦٨؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢، ق ١ ، ص ٢٧).

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٧) في« طبعة دار الجيل» . « يستوقف » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠) .

فوصل بعض الرعاة فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريبا منه على هيئة «المتغفلة»[١]، فسار حتى أشرف على الفرنج فإذا هم فى ألف رمح»[٢].

وعرض ابن أبى طى بعد ذلك ملخصا لأحداث المعركة ونتائجها[٣]، فقال: «فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعة منهم سلاحهم، وسلموا أنفسهم أسارى و نجا «ملك الفرنج»[٤] «هنفري»[٥] هاربا، ويقال أنه {وقف}[٦] به فرسه فحمله أحد خيالته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى»[٧].

كذلك وجدنا لابن أبى طى فى أحداث عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ ـ ١١٨٠ م، كتابات تتعلق بأخبار حلب، عرض فيها لحادثة:

---

(١) المتغفلة : أغفلت الرجل : أصبته غافلا ، ويقال : تغفلته و استغفلته أي تحينت غفلته . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٩٥ ـ ٩٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨ .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول معركة مرج عيون انظر . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج٤ ، ص٢٣٣ ـ ٢٣٦ ؛ العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٦٥ـ١٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٤٧) .

(٤) هو الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (١١٧٤ ـ ١١٨٥ م / ٥٦٩ ـ ٥٨٠ هـ) .

(٥) هو همفري دي تورن Humphrey of Toron أمير حصن بانياس : وقد خلط هنا ابن أبي طي بينه وبين بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، حيث كان « همفري » قد توفي قبل موقعة مرج عيون بنحو شهرين ، في إبريل عام ١١٧٩ م / ذي القعدة عام ٥٧٤ هـ ، متأثرا بجراحه من جراء هزيمته في أحد المعارك أمام قوات صلاح الدين ، وهذه المعركة سوف نتناولها في الصفحة التالية . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٩٨) .

(٦) في « طبعة دار الجيل » . « وقع » . ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠) .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨ (طبعة دار الكتب) .

حريق الأسواق فى حلب:

وصلتنا رواية قصيرة لابن أبى طى عن هذا الموضوع، أشار فيها إلى مسئولية فرقة الإسماعيلية فى حلب عن وقوع هذا الحريق، وأوضح الآثار السيئة التى ترتبت عليه بعد ذلك. فقال: «و فيها أحرق الإسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى «الجوائح»[١] التى أصابت حلب وأهلها[٢]»[٣].

أما بالنسبة لكتابات ابن أبى طى عن أحوال الدولة الأيوبية فى الشام فى عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م، فقد وصلنا كتاباته عن علاقات السلطان صلاح الدين مع ملك أرمينية ومع الخلافة العباسية.

علاقة صلاح الدين مع ملك أرمينية:

كانت العلاقة بين السلطان صلاح الدين و«ابن لاون» ملك أرمينية قد ساءت فى هذا العام، وذلك بسبب كثرة شكاوى «التركمان» من ابن لاون، حيث كان قد سمح لهم بالرعى فى أراضيه، ثم غدر بهم وأسرهم وأخذ أموالهم[٤]، وقيل أيضا أنه كان بسبب شكوى «قلج أرسلان» من الأرمن واستغاثته لذلك بصلاح الدين[٥]. فامتدت لذلك غارات السلطان صلاح الدين فى نواحى أرمينية، فقام ابن لاون بإحراق أحد أهم حصونه حتى لا يقع فى أيدى صلاح الدين، ولكنه لم ينجح فى نقل ما به من ذخائر، فاستولى عليها صلاح الدين[٦].

---

(١) الجوائح : مفردها جائحة ، وهي الشدة العظيمة التي تجتاح المال . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٤١٠) .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٦ .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥١ .

(٥) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٦) العماد الأصفهاني: المصدر السابق ، ص ١٧٧؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

وقد بدأت رواية ابن أبى طى بوصف هذه الذخائر وتقدير قيمتها، ثم عرض تفاصيل المفاوضات التى دارت بين صلاح الدين و ابن لاون، وانفرد فيها بإضافة البند الخاص بالأسرى الصليبيين، حيث كان العماد الأصفهانى وابن الأثير قد أوضحا أن المفاوضات تركزت على الإفراج عن الأسرى التركمان[١]. قال ابن أبى طى: «ووجد المسلمون فى أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى فلم يرض السلطان بما بذله، فزاد فى المال وأنه يشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج و يعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك[٢]»[٣].

علاقة صلاح الدين مع الخلافة العباسية:

أشرنا فيما سبق أثناء عرض كتابات ابن أبى طى فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م إلى ما ذكره عن العلاقة بين الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م) والسلطان صلاح الدين، وأوضحنا من خلال روايته مضمون التقليد الذى أرسله الخليفة إلى صلاح الدين، وفيه أقر ولايته لمصر و بلاد الشام.

وبعد وفاة الخليفة المستضئ بأمر الله فى شوال عام ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م، وولاية ابنه الخليفة «الناصر لدين الله» (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ ـ ١٢٢٥)، استمرت العلاقة بين السلطان صلاح الدين والخلافة العباسية فى عهده على ما كانت عليه من قبل فأعلن صلاح الدين طاعته للخليفة، وأقام الخطبة باسمه فى جميع بلاد الدولة الأيوبية[٤] كذلك أقر الخليفة

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥١ .

(٢) أورد كل من : النويري و ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع . انظر : (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص٣٩٦ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٨ .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

ولاية السلطان صلاح الدين وأرسل إليه التقليد والخلع العباسية فى شهر رجب عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م[١].

وقد انفرد ابن أبى طى بوصف تفصيلى لهذه الخلع، فقال: «وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام الناصر على الملك الناصر وكانت: ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، ويقيّار أسود مذهب، وطيلسان أسود مذهب، ومشدة سوداء مذهبة، وطوق، وتخت، و سرفسار، وجواد «كميت» من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود و طوق مجوهر و قصبة ذهب، و علم أسود وعدة خيول ويقج. وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق وكان يوما عظيما»[٢].

وفى عام ٥٧٧ هـ/ ٨١ ـ ١١٨٢ م، توفى ملك حلب «الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي»، وكذلك رزق السلطان صلاح الدين بولدين. وهذه الأحداث وصلتنا من كتابات ابن أبى طى عن أحداث هذا العام، وفى اعتقادنا أن أبا شامة اهتم بذكر هذه الروايات عنه لأنه كان له رأى مختلف حول أسباب وفاة الملك الصالح انفرد به، ولأن ابن أبى طى أيضا كان مهتما أثناء كتابة «سيرة صلاح الدين» بتدوين أخبار حياته الخاصة أيضا.

وفاة الملك الصالح إسماعيل:

توفى الملك الصالح إسماعيل كما ذكر «ابن الأثير» فى رجب عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م، على أثر إصابته بمرض شديد[٣]، وقد أوضح ابن شداد وابن العديم وغيرهم من المؤرخين

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص١٨٠ـ ١٨١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٥ ؛ ابن كثير:المصدر السابق،ج١٢ ،ص٨٣٦؛المقريزي:المصدر السابق، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٠ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٣ ؛ الباهر ، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

أنه كان مريضا «بالقولنج» وأدى ذلك إلى وفاته[١].

ولكن كان لابن أبى طى رأيا مخالفا لهذا الرأى حيث أكد أن الملك الصالح إسماعيل لم تكن وفاته طبيعية وأنه دُس إليه السُم، ولم يتأكد ابن أبى طى من الشخص الذى قام بذلك ولا من كيفية دس السم إليه، فاتهم فى ذلك أولا أحد أمراء نور الدين محمود وهو الأمير «علم الدين سليمان بن جندر»[٢] وذكر أنه دس السم إليه أثناء خروجهما للصيد واتهم أميرا آخر وهو «ياقوت الأسدي» فقال: «كان سبب موته أن «علم الدين سليمان{من}[٣] جندر» سقاه سما فى عنقود عنب وهو فى الصيد. وقيل: الذى سقاه «ياقوت الأسدي» فى شراب، وقيل أنه أطعمه «خُشْكنانكة»[٤] وهو في الصيد[٥]. ثم قال ابن أبى طى:{ودفنه}[٦] بالمقام الكبير الذى فى القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما. وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا»[٧].

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق،ص٥٥؛ابن العديم:المصدر السابق،ج٣،ص٤٠ .وانظر أيضا:ابن واصل :المصدر السابق،ج٢،ص١٠٦؛أبو الفداء:المصدر السابق،ج٣،ص٦٣؛الذهبي:العبر،ج٣ ، ٧٣ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦، ص ٨٩ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤، ص ٢٥٨ .

(٢) علم الدين سليمان بن جندر : من أمراء نوّر الدين محمود ، شاركه في حصار حارم في عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م وولاه نور الدين قلعة « عَم » . وكان من أصدقاء صلاح الدين ، ولاه قلعة عزاز في عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣م وولاه أيضا « دربساك » في عام ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م . (ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص٤٥ ،٧١، ٩٠، ١٠٦) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « سليمان بن » وهذه الطبعة هي الأصح لأن ابن العديم ذكره باسم سليمان بن جندر كما أشرنا في ترجمته . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١) .

(٤) خُشْكنانكة : يعرف في مصر بالخشتنان ، وهو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو بالفستق .(القلقشندي:صبح الأعشي،ج ٣،ص٥١٠،هامش(١)) .

(٥) أورد كل من النويري و ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن سبب وفاة الملك الصالح إسماعيل انظر : (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٧١)

(٦) في طبعة « دار الجيل » . « ودفن » . وهذه الطبعة هي الأصح لاستقامة المعنى .(أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١) .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٦٥ (طبعة دار الكتب) .

وفى الحقيقة فقد وقفنا كثيرا أمام رأى ابن أبى طى هذا، ولم نجد ما يؤيد أو يعارض روايته بين المؤرخين السابقين عليه أو المعاصرين له، فكما ذكرنا من قبل لم يحدد ابن الأثير مرض الملك الصالح، وكان ابن شداد وابن العديم أول من ذكر إصابته بالقولنج، ولفت نظرنا أيضا أن «ابن كثير» ـ وهو من المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى ـ وكان قد ذكر نفس رواية ابن أبى طى، ربط بين إعطاء الملك الصالح السم ومرضه بعد ذلك بالقولنج[1].

ونظرا لأن روايات ابن أبى طى عن حلب تعد من الروايات المهمة، لانفراده فى معظم الأحيان بذكر الكثير من أحداثها، وذلك بحكم نشأته وإقامته فيها وإطلاعه على المصادر التى لم تتوافر لغيره، وجدنا أنه لابد لنا لكى نحقق رأيه أن نقرأ الأحداث التى وقعت قبل وبعد وفاة الملك الصالح إسماعيل، وقد لفت انتباهنا الأمير «علم الدين سليمان ابن جندر» ـ وهو أحد المتهمين فى رواية ابن أبى طى بقتل الملك الصالح ـ فقد ذكر عنه «ابن العديم» ما يدعو لإثارة الشك حوله بعد وفاة الملك الصالح، حيث كان الملك الصالح قد أوصى قبل وفاته بإسناد ولاية حلب إلى ابن عمه ملك الموصل «عز الدين مسعود بن مودود»، ووقع اختياره عليه لما كان يتمتع به من قوة، يستطيع بها أن يحمى حلب من هجوم السلطان صلاح الدين وفى الوقت نفسه رفض الملك الصالح اقتراحا بإسناد ولاية حلب إلى ابن عمه «عماد الدين مودود» أمير سنجار، وذلك بسبب ضعف قواته، وعدم قدرته على الصمود أمام هجمات صلاح الدين على حلب[2].

وفى الوقت الذى قام فيه معظم الأمراء فى حلب بتنفيذ وصية الملك الصالح بعد وفاته وقاموا بأداء يمين الولاء للملك «عز الدين مسعود» ملك الموصل، قام الأمير علم الدين سليمان بن جندر هو وآخرين بمراسلة الأمير «عماد الدين مودود» أمير سنجار سرا لدعوته إلى حلب، وأخذ يباطل فى حلف يمين الولاء للملك عز الدين مسعود، ولما تأخر

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٣٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ٤١ ؛ النويري : المصدر السابق،ج٢٧،ص ١٧٢؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

وصول عماد الدين مودود، قام علم الدين سليمان بن جندر بأداء اليمين، ولما وصل عز الدين مسعود إلى حلب هرب منها علم الدين سليمان إلى صلاح الدين فى مصر، لأنه كان بينهما صداقة قديمة[١].

ومن هذا يظهر أن «علم الدين سليمان بن جندر» كان مواليا لعماد الدين بن مودود أمير سنجار، وحاول أن يساعده فى ولاية حلب، وهذا يوضح أنه كان لا يعمل من أجل حماية حلب، بل كانت تحركه أطماعه الخاصة، وعلى ضوء هذه الأطماع فنحن لا نستبعد أن يكون لرأى ابن أبى طى أساسا من الصحة.

ومن الأحداث التى دونها ابن أبى طى أيضا فى عام ٥٧٧ هـ/ ٨١ ـ ١١٨٢م كان إنجاب السلطان صلاح الدين لولدين، وهى من الأخبار الخاصة بحياة صلاح الدين والتى كان يحرص ابن أبى طى أن يضمها لكتابه عن سيرته فقال: «وفيها ولد للسلطان «الملك المعظم تورانشاه»، و الملك «المحسن أحمد» بينهما سبعة أيام ؛ واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما[٢]»[٣].

وشهدت أحداث عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م تطورا كبيرا فى مجريات الأمور فى حلب وبلاد الجزيرة، هذا بالإضافة إلى بعض الموضوعات الأخرى التى عرضها ابن أبى طى ضمن أحداث هذا العام.

تطور الأحوال فى حلب بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل:

آلت ولاية حلب إلى الملك «عز الدين مسعود» ملك الموصل وذلك حسب وصية ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بذلك، فوصل إليها فى شعبان عام ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م، وقام

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٨٤ .

(٢) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨٤ .

بإجراء بعض التغييرات فى ولاة الأمور فى حلب، ومن ذلك عهد إلى «مظفر لدين ابن زين الدين»[١] بولاية مدينة حلب و الديوان وجعل إليه أيضا قيادة العساكر، ثم غادر حلب فى شوال من نفس العام و توجه إلى «الرقة»[٢].

وقد استغل «مظفر الدين ابن زين الدين» خلو البلد من واليها وحاول الاستيلاء على قلعة حلب. وعرض ابن أبى طى هذا التمرد، ووصلتنا رواية مختصرة له عن هذا الموضوع[٣] فقال: «فى أول السنة أراد مظفر الدين ابن زين الدين و كان إليه شحنكية حلب، الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها فلم يتمكن، وظهر أمره»[٤].

ثم ذكر ابن أبى طى بعد هذه الواقعة المقايضة التى تمت بين عز الدين مسعود و أخيه عماد الدين حول بلدتى حلب و سنجار، وقد اختلف معه ابن العديم فى تحديد توقيت وقوعها، و ذكر أنها حدثت قبل تمرد مظفر الدين بن زين الدين[٥].

قال ابن أبى طى: «وبعد هذه الوقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيره إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب فسار إليها ودخلها»[٦]. وكان هذا الاتفاق قد تم بينهما بعد أن هدد عماد الدين أخاه بأن يسلم سنجار إلى السلطان صلاح الدين، فيشكل له تهديدا مباشرا فى الموصل[٧].

---

(١) هو مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين والي حران . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٦) .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ـ ٥٢ .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر (ابن العديم : المصدر السابق ، ص ٥٢ ـ ٥٤).

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٥ .

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥٤ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ٤٧ .

تطور الأحوال فى بلاد الجزيرة:

كان السلطان صلاح الدين فى مصر عندما بلغه خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل، فقرر مغادرتها، حيث أصبحت الفرصة مواتية له لضم حلب إلى أملاك الدولة الأيوبية فى بلاد الشام، فسار حتى أصبح بالقرب منها، ثم ما لبث أن تركها وذلك بعد أن استمع - كما قال العماد الأصفهانى - إلى نصيحة «مظفر الدين بن زين الدين» أمير حران، بضم بلاد الجزيرة أولا ليتيسر له بعد ذلك أمر حلب[١]. وقد ذكر ذلك أيضا ابن أبى طى واتفق فى روايته مع العماد الأصفهانى، فقال: «فخرج مظفر الدين عنها (حلب) وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته، واجتمع به على «جباب التركمان»، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق و تأخير أمر حلب، ففعل، ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام»[٢].

ثم سار السلطان صلاح الدين نحو بلاد الجزيرة وتمكنت قواته من السيطرة على معظم البلاد بها[٣]. وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عرضا مختصرا لبعض البلاد التى ملكها صلاح الدين هناك، وأضاف فى هذه الكتابات بعض المعلومات التى تتعلق بمحاولة استيلاء صلاح الدين على «تل خالد»، ثم سيطرته على «البيرة»، و «سروج»، فقال: «وأقام على «تل خالد» ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة، وفيها «شهاب الدين محمد بن الياس الأرتُقي»، فنزل إليه و قبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة فأجابه، وقدم له مفاتيح القلعة فردها إليه ووعده باستخلاص ما كان «صاحب ماردين»[٤] رده عليه.

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ، ٢٠١ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥٦ ؛ ابن العديم :المصدر السابق،ج،ص٥٦؛ابن واصل:المصدر السابق،ج٢،ص١١٠ ،١١٦.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٩٥ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٤ ، ١٥٦ - ١٥٧) .

(٤) هو قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٤) .

ورحل السلطان إلى سروج، فنزل إليه صاحبها «ابن مالك» مستأمنا فأعاده إلى بلده، و راسل صاحب ماردين فى رد ما كان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل. ثم أخذ الرها ثم الرقة ؛ ثم سلم الرها إلى «ابن زين الدين» والرقة إلى «صاحب الرها»[1] لأنه سأل أن يكون فى خدمة السلطان»[2].

وقد استنفذت توسعات السلطان صلاح الدين فى بلاد الجزيرة الكثير من الأموال، ولهذا راسل نوابه فى دمشق و مصر لإرسال المال إليه، وقد أمدنا ابن أبى طى بأجزاء من نصوص رسائل **صلاح الدين إلى ابن أخيه «عز الدين فرخشاه» فى دمشق وإلى أخيه «الملك العادل» فى مصر.**

قال ابن أبى طى: «ومن كتاب فاضلى عن السلطان إلى «عز الدين فرخشاه» يعلمه بالحال وفى آخره «ولتعجل بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطامع أفواها، واستوعبت الخزائن إخراجا و إنفاقا، واستنفدت الحواصل إعطاء و إطلاقا ؛ وقدمنا على بحر لا يسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففى أنفسها الفقر».

ثم قال: «ومن كتاب آخر إلى «العادل»: «يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق وكثرة الخرج الذى اشترك فيه أهل الأفاق وأنه متى نصبت المواد وقفت الأمور التى قد شارفت نهاياتها وتفرقت الجموع التى تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها، و النزول عليها»[3].

ومن الأحداث التى تناولها ابن أبى طى فى عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م كانت:

---

(١) هو الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٢٠٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

وفاة عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

كانت وفاته فى جمادى الأولى من السنة[1]، وأورد ابن أبى طى عنه ترجمة كبيرة، أوضح فيها أهم صفاته، وخاصة كرمه، كذلك ذكر بعض أبيات من الشعر التى قيلت فى مدحه، كما عرض نماذج من شعر عز الدين فرخشاه.

قال ابن أبى طى عن كرمه: «كان فرخشاه من أكرم الناس يدا، و أطهرهم أخلاقا، و أسدهم رأيا، و أشجعهم قلبا. ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثه يبين منها بعض جسده، فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام، وبغلة مسرجة وبألف دينار، و قال لبعض غلمانه: اجعل هذا كله فى موضع ثياب الرجل و خذ ثيابه، و اجعل هذا الغلام و البغلة له، ففعل. فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامى عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم إليه الغلام و أخبره بجميع ما صنعه «عز الدين»، واخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا فى كل شهر، فلبس الثياب و خرج من الحمام وهو من أغنى الناس».

ثم قال ابن أبى طى: «وكان فرخشاه ممدحا، مدحه «ابن سعدان» بعدة قصائد من جملها التى يقول فيها:

تَخذ النَّابرى لبداً، وعود الز ... ان نابـاً، والهندوانى ظفرا
أعجمى الأنساب قصرت الأع ... راب عنه سجعا، و نظما، و نثرا
هزمت كُتُبُه الكتائبَ جُفلاً ... وأعادتْ دُجى الحوادث فجدا
فهو كالمازنى علما، وكالأح ... نف حلما و كالفرزدق شعرا»

ثم قال أيضا: «وكان فرخشاه مضافا إلى شجاعته، عالما متفننا كثير الأدب مطبوع

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

النظم والنثر. فمن شعره قوله:

أنـــــا فى أسر الـــــسقام ... مـــن هـــوى هـــذا الغـــلام

رشـــأ ترشـــق عينـــا ... ه فـــؤادى بـــسهام

كلـــما أرشـــفنى فـــا ... ه عـــلى حـــر الأوام

ذقـــت منـــه الـــشهد فى الـــث ... لـــج المـــصفى فى المـــدام[1]»[2]

وفى عام ٥٧٩ هـ / ٨٣ ـ ١١٨٤ م أوشكت جهود السلطان صلاح الدين الرامية إلى تحقيق جبهة إسلامية موحدة تحت راية الدولة الأيوبية على الانتهاء. حيث واصل فى هذا العام بسط سيطرته على بلاد الجزيرة، فملك مدينة آمد، كذلك خضعت لسلطته مدينة حلب و حصن حارم. وقد أمدنا ابن أبى طى بكثير من تفاصيل هذه الفتوحات، خاصة أحداث ملكه حلب، والإجراءات الإدارية التى أقرها فيها.

سيطرة صلاح الدين على آمد:

توجهت قوات السلطان صلاح الدين لحصار مدينة «آمد»[3] فى منتصف شهر ذى الحجة عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م، واستمر حصاره قائما لها حتى بداية عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م. ومع بداية هذا العام بدأت الكتابات التى وجدناها لابن أبى طى عن أحداث هذا الحصار، ثم واصل بعد ذلك إيضاح باقى الأحداث التى انتهت بتسلم صلاح الدين المدينة وقد لاحظنا اتفاق ابن أبى طى فى سرده لمعظم هذه الأحداث مع كتابات العماد

---

(١) أورد ابن كثير ملخصا للقصة التي رواها ابن أبي طي عن كرم فرخشاه ، و ذكر أيضا أبيات الشعر التي كتبها ابن أبي طي من شعر فرخشاه . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٣) آمِدُ : أعظم مدن ديار بكر و أجلها قدرا و أشهرها ، تقع ضمن بلاد جزيرة أقور ، الواقعة بين نهري دجلة و الفرات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ج ٢ ، ص ١٣٤) .

الأصفهانى[١]، ولم تخل مع ذلك كتابات ابن أبى طى من بعض الإضافات، وسنشير إليها فى حينها.

قال ابن أبى طى عن أحداث الحصار: « (دخلت سنة تسع و سبعين و خمسمائة) والسلطان مُنازل لآمد واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكَتْب رقاع فيها إبْراق وإرْعاد، ووَعْد وإيعاد، وإن داموا على القتال لنستأصلن شأفتهم وإن اعتزلوا وسلَّموا البلد لنُحسنَنَّ إليهم، ولنضعن ما عليهم من الكُلَف و الضرائب، وأمر أن تُعلَّق تلك الرقاع على السهام وترمى إلى آمد فرُمى من ذلك شئ كثير، فكفوا عن القتال وأشاروا علي«ابن نَيْسان»[٢]، بطلب الأمان فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذّخائر والسلاح وأمهل ثلاثة أيام»[٣].

وفى خلال هذه الأيام الثلاثة نقل «ابن نيسان» ما استطاع من مقتنياته فى آمد، وعاونه فى ذلك السلطان صلاح الدين. وقد أوضح ابن أبى طى تفاصيل ذلك قائلا: «فلما عوَّل على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ إليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، و جعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقماش وآلات الذهب و الفضة، مدة ثلاثة أيام، بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلثمائة إنسان، ولم ينقل عُشر ما كان له، وسُرق من أمواله أكثر مما حصل له لأنه ما أخرج أحد شيئا إلا وأخذ نصفه أو أكثر. وكان ابن نيسان قد حصل فى آمد أشياء كثيرة لا يمكن و صفها من الأسلحة، والأموال و الغلال و الكتب. ولما انقضى الأجل أخذ ما حصل، وسار قاصدا بلاد الروم»[٤].

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨ ـ ٢٢١ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩ ، ص ١٦١ .

(٢) هو بهاء الدين مسعود بن أبي علي بن نيسان : كان له الحكم الفعلي في مدينة آمد ، كما كان لوالده من قبله ، ولم يكن لواليها « محمود بن إيلكدي » معهم أمر و لا نهي . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦١ ؛ ابن و اصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص ١٣٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٥ (طبعة دار الكتب) .

و تسلم بعد ذلك السلطان صلاح الدين مدينة آمد، ووصف ابن أبى طى ما وجد بها من ذخائر، واتفق فى وصفه لكثير من هذه الذخائر مع «العماد الأصفهاني»[١]، كما أنفرد ابن أبى طى بما ذكره عن آلات الحصار ومنها نصول النشاب، وأيضا ما أورده عن خزانة الكتب، فقال: «وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها و ذخائرها، و{نصب}[٢] أعلامه على {سورها}[٣]، وذلك فى «رابع عشر المحرم»[٤]، ووُجد فيها من الغلال والسِّلاح، وآلات الحصار من المجانيق، واللعب و{العرَّادات}[٥] أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد فى بلد مثلها ووُجد فيها برج من أبراجها فيه «مائة ألف شمعة»[٦]، وبرج مملوء بنُصُول النَّشَّاب، وأشياء كثيرة يطول شرحها. وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضى الفاضل فانتخب منها حمل سبعين «حجازة»[٧]. ويقال إن «ابن قرا أرسلان»[٨] باع من ذخائر آمد و خزائنها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها[٩]»[١٠].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٢) في طبعة : « دار الجيل » . « نصبت » . (أبو شامة : الروضتين، ج ٢ ، ص ٣٩) .

(٣) في طبعة : « دار الجيل » . « أسوارها » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) اختلف هنا ابن الأثير مع ابن أبي طي ، وذكر أن السلطان صلاح الدين تسلم آمد في العشر الأول من المحرم ، ونعتقد أن رأي ابن الأثير هو الأصح ، حيث أوضح ابن أبي طي بعد ذلك أن صلاح الدين اتجه إلي مدينة تل خالد وتسلمها بعد ملكه آمد ، وحدد تاريخ ملكه تل خالد أيضا في يوم الرابع عشر من المحرم . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦١؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٣٥ (طبعة دار الكتب)) .

(٥) في طبعة : « دار الجيل » . « الزوادات » (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٩) .

(٦) في رواية العماد الأصفهاني : « ثمانين ألف شمعة » . (سنا البرق ، ص ٢٢٠) .

(٧) في رواية « ابن كثير » : « حمارة » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٣) .

(٨) هو نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير حصن كيفا . (ابن الأثير: الكامل ، ج ٩، ص١٦١).

(٩) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن خزائن السلاح والشمع والكتب . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٣) .

(١٠) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

ثم وهب السلطان صلاح الدين مدينة آمد وذخائرها للأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير حصن كيفا، وقد ذكر العماد الأصفهانى تفاصيل ذلك[1]، واتفق معه ابن أبى طى فى مجمل روايته، فقال: «وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بما فيها، و كتب له بها و بأعمالها توقيعا ووَفى له بما به، وقيل للسلطان أنك وعدته بآمد وما وعدْته بما فيها من الأموال و الذخائر، وفيها من الذخائر «ما يساوى ثلاثة آلاف ألف دينار»[2]، فقال: لا أضنُّ عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من اتباعنا وأصحابنا»[3].

ثم اختتمَ ابن أبى طى روايته عن ملك السلطان صلاح الدين آمد بذكر أبيات من الشعر التى مدح فيها بعض الشعراء الحلبيين هذا الانتصار الجديد. فقال: «وفى فتح آمد يقول «سعيد الحلبي» من قصيدة فى السلطان:

رمى آمداً بالصافنات، فأذعنت ... له طاعة آكامُها ووُعُورُها

فما عزَّ ناديها، ولا اعتَاص ثغرها ... ولا جاش طاميها ولا رد سورُها

وأنزلت بالكرة ابن نيسان مُحْرِجا ... كما أنزل الزَّبَّاء كَرْهاً قصيرُها

نهضْت لها حتى إذا أنْقاد صعبُها ... وقرَّ على طول الشماس نفورُها

سمحت بها جُوداً لمَنْ ظلّ برهة ... بغاورها طوراً، وطوراً بغيرها

ومَلكت ما ملكَّتَ منها تحوّلاً ... وكان قليلا فى نَدَاك كثيرها

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(٢) أورد ابن كثير نفس تقدير ابن أبي طي لقيمة ذخائر آمد. وكان العماد الأصفهاني قد ذكر رقما تقريبا لتقدير قيمة هذه الذخائر فقال: «فيها ذخائر تربي على ألف ألف دينار». وأكد رأي العماد ابن الأثير وبعض المؤرخين. (العماد: سنا البرق، ص ٢٢٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦١. وانظر أيضا: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٣٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١، ص ٨٤٣).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٢٦.

وإن بـــلاداً أنجـــدتك ملوكُهـــا لأجـــد رُأنْ يرجـــو نَـــدَاك فقيرهـــا

وقال أيضا ابن أبى طى: «قال «ابن سعدان الحلبي» يذكر فتح آمد:

فيـا سـاكنى الرّعنـاء مـن سـفح آمـد أرى عارضـاً ينهـلُ بـالموت هاطلـه

لـئن غـضبت يومـا عليـكمُ عروشـها فهـذا ابـنُ أيّـوب، وهـذى معاقلـه

و{لوْرَاقهـا}[1] يومـاً سـواهُ لقطعـت أبـاهرُه مـن دونهـا، وأباجلـه»[2].

سيطرة صلاح الدين على تل خالد:

انتقلت قوات السلطان صلاح الدين بعد ملكه آمد نحو حلب، وقامت بحصار البلاد القريبة منها، فحاصرت مدينة «تل خالد» فى المحرم من عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م[3] و أوضح العماد الأصفهانى أن فرقة من قوات السلطان صلاح الدين بقيادة «تاج الملوك بوري»[4] كانت قد سبقته إلى تل خالد، وقاموا بحصارها حصارا شديدا، وبعد وصول السلطان صلاح الدين إلى تل خالد فى الثانى عشر من المحرم فتحت المدينة أبوابها له[5].

أما بالنسبة لما ذكره ابن أبى طى عن هذا الموضوع، فقد لاحظنا اتفاق روايته مع العماد الأصفهانى اتفاقا كبيرا، كذلك كتب ابن أبى طى أيضا جزءا من الكتاب الذى أورده العماد، وهو من إنشاء القاضى الفاضل ووصف فيه المعركة.

---

(١) في طبعة : « دار الجيل » . « ولورامها » (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٦ (طبعة دار الكتب) .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٦١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٨٤ .

(٤) هو تاج الملوك بوري بن أيوب : أصغر أخوة السلطان صلاح الدين ، توفي في صفر عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م علي أثر جرح أصابه أثناء حصار صلاح الدين حلب . وسوف نذكر المزيد من التفاصيل عنه في الصفحات القادمة من خلال الترجمة التي أوردها ابن أبي طي عنه . (العماد لأصفهاني : سنا البرق ، ص ٢٢٣ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٤) .

(٥) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

قال ابن أبى طى: «تسلم السلطان تل خالد فى رابع عشر المحرم، وسلمها إلى «بدر الدين دلدرم»[١]. ثم قال: «ومن كتاب فاضلى» نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء

ثانى عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجلُ «تاج الملوك» إليها وأناخ عليها، و قابلها، وقاتلها، وعالجها ولو شاء لعاجلها ولما أطلتَّ عليها راياتُنا ألقَى مَنْ فيها بيده وأنجز النَّصر صادق موعده[٢]، وأرسلتّها حلُب مقدّمة لفتحها. وقد أنعم الله علينا بنعم لا نُحصيها تعداداً، و لا نستقصيها اعتدادا، ولا نستوعبها ولو كان النهار طِرْساً و البحر مداداً. ورايتُنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت مَفاتح الأمصار تفتحها بنصر الله لا بحدَّها ولا بقطعها»[٣].

سيطرة السلطان صلاح الدين على حلب:

تميزت كتابات ابن أبى طى عن الأحداث التى أعقبت سيطرة السلطان صلاح الدين على حلب، حيث أورد عنه أبو شامة أحداثا مهمة انفرد بذكر الكثير منها، واكتفى أبو شامة بهذه الأحداث من رواية ابن أبى طى، واختصر من كتاباته مقدمة الأحداث التى توضح حصار صلاح الدين حلب.

وكان السلطان صلاح الدين قد وصلت قواته إلى حلب فى السادس والعشرين من المحرم عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، وأقام حولها حصارا شديدا، وقاتله واليها «عماد الدين زنكي» لفترة، ثم راسله واتفق معه على تسليمه حلب فى مقابل تعويضه عنها بعدة مدن فى بلاد الجزيرة، وهى: سنجار و الخابور و سروج و نصيبين و الرقة، ووقع الاتفاق بينهم فى

---

(١) هو بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق : كان واليا أيضا علي تل باشر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٢٢٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٣ ، ص ٧١) .

(٢) أورد العماد هذا الجزء بأسلوبه ، ولم يذكره ضمن كتاب القاضي الفاضل . (المصدر السابق ، ص ٢٢٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

السابع عشر من صفر من نفس العام[1].

وقد بدأت كتابات ابن أبى طى بذكر أبيات من الشعر لبعض الشعراء الحلبيين الذين كانوا يحرضون صلاح الدين على ملك حلب. ولعل ابن أبى طى اهتم بذكر هذه الأبيات ضمن كتابه عن سيرة السلطان صلاح الدين، ليدلل بها على تمتع السلطان صلاح الدين بحب كثير من الناس له حتى فى البلاد الخارجة عن نطاق حكمه.

قال ابن أبى طى: «وكان كثير من الشعراء يحرّضون السلطان على فتح حلب، منهم: «أبو الفضل بن حميد الحلبي» له من قصيدة قال:

يـا ابـن أيّـوب: لا برحـت مـدى الـدّه ... ر رفيـــع المكـــان و الـــسّلطان

حلـب الـشام نحـو مـرآك وَهْـى ... وَلَـهَ الـصَّبّ ريـعَ بـالهجران

ثم قال: «وقال «ابن سعدان الحلبي» من قصيدة:

دونـــك و الحـــسناء أمّ القـــرى ... ونارهـا الأشـهب و الطـود الأشـم

واركـب إلى العليـاء كـل صـعبة ... أبيـت لعنـاً، وخـلاك كـلّ ذمّ

وارْمِ فكـلّ الـصّيد فى جـوف الفـرا ... لا {صـادد}[2] الـسهم، ولا نـابى الحكم

مُـدَّ إلى أخـت الـسماء زورة ... لا فـرق يعقبهـ ولا نـدم

فيالهـا شـماء مـشمخرّة ... تُطـارح الـبرق و سـاحات الـديم

إيـه صـلاحَ الـدين، شـدَّ أزرهـا ... واعـزم عليهـا، الزّمـن قـد عـزم

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول حصار صلاح الدين حلب انظر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦٢ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٦٣ ـ ٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .

(٢) في طبعة : « دار الجيل » . « صارم » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٤) .

ودونـــك المنعـــة مـــن قبابهـــا وبابهـــا المغلـــق فى وجـــه الأمـــم»[١]

ثم عرض ابن أبى طى أهم الأحداث التى تلت ملك السلطان صلاح الدين حلب وبدأها بتحديد تاريخ اليوم الذى تسلم فيه حلب، وكان تحديده أكثر دقة عن غيره من المؤرخين[٢]، فقال: «وفى آخر يوم السبت، ثامن عشر صفر، نشر سنجق السلطان الأصفر على سور قلعة حلب وضربت له البشائر»[٣].

وتناولت كتابات ابن أبى طى بعد ذلك أحوال الأمير عماد الدين زنكى، والى حلب الأسبق، فأوضح قيامه بنقل جميع أمواله وذخائره من قلعة حلب. وقد اتفق ابن العديم مع ابن أبى طى فى جانب كبير من روايته[٤]، وانفرد ابن أبى طى بذكر التسهيلات التى قدمها السلطان صلاح الدين لعماد الدين، فذكر تنازله لعماد الدين عن ما فى قلعة حلب من ذخائر، وإمداده بالدواب لنقل هذه الذخائر.

قال ابن أبى طى: «وفى ذلك الوقت تخفى «عماد الدين» و خرج من القلعة ليلا إلى المخيم، وأخذ فى إخراج ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث. وكان استئناب

الأمير «حسام الدين طمان» فى القلعة حتى تُوافى رسلُه بتسليم سنجار ونصيبين والخابور إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرَّقة {لوساطة}[٥] فى أمر عماد الدين. وكان السلطان شرط أنه ما يريد من حلب إلا الحجر فقط وأذن لعماد الدين فى أخذ جميع ما فى القلعة وما يمكنُه حمله؛ فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع فى السّوق كلَّ ما لم يتمكن من

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢ (طبعة دار الكتب).

(٢) كان ابن الأثير قد ذكر أن صلاح الدين تسلم حلب في الثامن عشر من صفر، و أضاف المقريزي أن ذلك كان يوم السبت. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٨١).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٦، ٦٩.

(٥) في طبعة: «دار الجيل». «لوساطته». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٤).

حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا و خيلا برسم حمل ما يحتاج إلى حمله»[١]

كما دعا السلطان صلاح الدين عماد الدين زنكى إلى وليمة أقامها له بمخيمه بالميدان الأخضر بحلب. وأمدنا العماد الأصفهانى بمجمل أحداث هذه الدعوة[٢]، واتفق ابن أبى طى معه فى عرض هذه الأحداث، وأضاف عليها بعض الجمل الأدبية التى تتشابه مع أسلوب العماد الذى يغلب عليه السجع فى معظم كلماته. قال ابن أبى طى: «وعمل له يوم الأحد «تاسع عشر صفر»[٣] دعوة عظيمة فى الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمى حلب. وبينما السلطان على لَذَّته بالدعوة والأخذ والإعطاء، والإنعام والحباء، إذ حضر إليه من عرَّفه وفاة أخيه «تاج الملوك» بسبب الضربة التى أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك ولا اضطرب، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح وبَذْل الإحسان ؛ وأمر بستر ذلك، وتوعد عليه إن ظهر وكظم حزنه، وأخفى رزيَّته، وصبر على مصيبته، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفى ذلك الوقت انقضت الدّعوة وتفرَّق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسْتَرْجع وبكى على أخيه ؛ ثم أمَر به فغُسِّل وكُفِّن و صُلِّى عليه، وأمر به فدفن بمقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها»[٤].

وأورد ابن أبى طى عقب ذكره خبر وفاة «تاج الملوك بوري»[٥]، ترجمة عنه، شملت أهم ما كان يميزه من صفات، كما عرض فيها أيضا نماذج من شعره فقال:

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ (طبعة دار الكتب) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٣) ذكر ابن العديم أن دعوة السلطان صلاح الدين لعماد الدين كانت في يوم الخميس الموافق الثالث و العشرون من صفر ، كما أكد ابن شداد أن وفاة تاج الملوك كانت في ذلك اليوم . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٦٩ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥٩ ـ ٦٠) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٥) ترجم له أيضا كثير من المؤرخين من بينهم : (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٨٤ ـ ٨٨) .

«وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب، مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة. مليح الرَّمى بالقوس والطَّعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مِقداما على الأهوال. وكان قد جمع إلى ذلك الكرمَ والتفنّن فى الأدب، وله شعر حسن متوسط فمنه:

يـا هـذه، وأمـانى الـنفس قـربكم ... يـا ليتهـا بلغـت مـنكم أمانيهـا

إن كانـت العـين مـذ فـارقتكم نظـرت ... إلى سـواكم فخانتهـا أماقيهـا

ثم قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس فى اليوم الرابع وفرَّق فى وجوه الحلبيين الأموال»[1].

ثم وصل بعد ذلك فى اليوم السادس والعشرين من صفر عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م رسل الأمير عماد الدين زنكى، ليخبروه بتسلم نوابه البلاد التى عينها له السلطان صلاح الدين فى بلاد الجزيرة عوضا له عن حلب، فخرج عماد الدين من قلعة حلب إلى هناك. وقد أهتم المؤرخ ابن أبى طى بتسجيل وقائع هذا اليوم، وأمدنا بوصف مهم للقاء الوداع بين السلطان صلاح الدين و الأمير عماد الدين زنكى والخلع التى قدمها له صلاح الدين، وانفرد بكتابة ذلك بين كثير من المؤرخين[2].

قال ابن أبى طى: «وفى سادس عشرى صفر ورد أصحاب عماد الدين و أحضروا إليه العلائم بتسليم «سنجار و نصيبين والخابور». ففى ذلك اليوم تسلّم قلعة حلب وانزل منها الأمير «طمان» وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين فى وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهرا، وركب السلطان إلى لقائه، فاجتمعا عند «مشهد الدّعاء»[3] الذى بظاهر حلب من جهة الشمال، فتسالما، ولم يترَجَّلْ أحدٌ منها

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) كان كثير من المؤرخين قد أشاروا فقط إلي وصول رسل الأمير عماد الدين زنكي ، وما قدمه له صلاح الدين من هدايا ، ومنهم : (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٦٩ - ٧٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص ١٤٤).

(٣) مشهد الدعاء : يقع في شمال حلب خارج باب النصر ، وهو مشهد قديم ، وقد جُرِّبَ لإجابة الدعاء

لصاحبه. ثم جاء بعد عماد الدين ولدُه «قطب الدين» فترجل للسلطان وترجَّل السلطان له، واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وأبوه فى خدمة السلطان إلى مخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طُرَّاحَته، وقدمّ له تقدمه حسنه: عشرين بُقْجة صُفراً، فيها مائة ثوب من العتابى والأطلس والمعتق، و{المجرَّش}[١]، وغير ذلك ؛ وعشرة جلود «قندس»[٢] وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة «قباء»، ومائة «كمة»، وحجرَتين عربيتين بأداتهما، وبغلَتَين مسروجتين، وعشرة «أكاديش»[٣] وخمس «قطر»[٤] بغال وثلاث قطر جمال عربيات، وقطار «بُخْت»[٥]. ولما فرغ السلطان من عرْض الهدية قدم الطَّعام ؛ فلما أصاب منه عماد الدين نهض للرْكوب وخرج السلطان معه وركب لوداَعه، وسار معه إلى قريب من «بابلي»[٦]، وودَّعه وعاد، وسار عماد الدين إلى بلاده»[٧]

وفى اليوم التالى لخروج عماد الدين زنكى من قلعة حلب صعد إليها السلطان صلاح الدين[٨]، وقرأ عدة آيات من القرآن الكريم، وأظهر سروره لملكه حلب وقد أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل هذا الموضوع فقال: «وفى يوم الاثنين سابع عشرى صفر ركب السلطان

. (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ (خاص بحلب) ، ص ١٤٦) .

(١) في طبعة : « دار الجيل » . « الممرس » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٥) .

(٢) القندس : القرض الأسود حيوان له فراء يؤخذ منه شريط في عرض نحو ثمن ذراع يدور بجبهة الرجل و أعلى عنقه . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٤٤ هامش ٣).

(٣) أكاديش : يطلق غالبا علي الحصان غير الأصيل المستخدم في حمل الأثقال . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٤ ، هامش ٥) .

(٤) قَطَر : أي تشد الإبل ، أو غيرها علي نسق ، واحدا خلف واحد . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٢١٦) .

(٥) البُخْت : الاسم أعجمي معرب ، وهي جمال طوال الأعناق . (المصدر نفسه ، ج ١ . ص ٣٢٨) .

(٦) بابلاّ : قرية كبيرة بظاهر حلب بينهما نحو ميل (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٠٩).

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٤ .

(٨) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

وصعد إلى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من «باب الجبل»[١] وسُمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤتِي الملك مَنْ تَشَاءُ[٢]» الآية، وقال: والله ما سُرِرْت بفتح مدينة كسُرُورى بفتح هذه المدينة ؛ والآن قد تَبيَّنت أننى أملك البلاد، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت ، وقال: صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة فسمعته يقرأ: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ» الآية. ثم قال: ولما بلغ السلطان إلى باب دار عماد الدين قرأ: «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُم وَأَمْوَالَهُمْ

وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا»[٣]، ثم صار إلى المقام فصلّى ركعتين ؛ ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار فى جميع القلعة ؛ ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب[٤]، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب»[٥].

ثم ذكر ابن أبى طى عدة أبيات من الشعر التى قيلت لتهنئة السلطان صلاح الدين بملكه حلب، وذكر من بينها شعرا قاله والده فى هذه المناسبة. فقال: « وأنشده جماعة من الشعراء منهم «يوسف {البراغي}[٦]»، له من قصيدة:

شُرُفـت بـسامى مجـدك الشُّهباء ... وتجللتهـا بهجـة وضـياء

ألقـتْ إليـك قيادَهـا، وبهـا عـلي ... كـلِّ الملـوك ترفُّـعٌ وإبـاء

---

(١) باب الجبل : أنشأه الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين في سور قلعة حلب ، ويقع شرقي باب القلعة ، وانتهى من عمارته في عام ٦١١ هـ/ ١٤ ـ ١٢١٥ م . وهذا الإيضاح يظهر عدم دقة ابن أبي طي في ذكره لدخول السلطان صلاح الدين من هذا الباب قبل بنائه بأكثر من ثلاثين عاما (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١، (قسم حلب) ، ص ٨٣) .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ . (أبو شامة : الروضتين ، ص ١٤٥ ، هامش ١) .

(٣) سورة الأحزاب : أية ٢٧ . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥، هامش ٢) .

(٤) أورد ابن كثير معظم ما أورده ابن أبي طي في هذا الجزء انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٤) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٥ (طبعة دار الكتب) .

(٦) في طبعة : « دار الجيل » . « البراعي » . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٥) .

قال: ومنهم: «سعيد بن محمد الحريري» من قصيدة، وتقدم بعضها:

وصبَّحت شهباء العواصم مصلتا ... قواضب عزم لا يفلّ شهيرها

فأمْطتك منها غارباً فيك راغبا ... وعاد يسيرا فى يديك عسيرُها

وأوطأت منها إخصيك تَنوُفةً ... يعزّ على الشَّعرى العَبوُر عُبورها

ورَدَّ إليها روحُ عَدْلك روحها ... وكانتْ رميماً لا يرجى نشورها

ثم قال: و قال والدى أبو طى النجار من قصيدة:

حلبُ شامة الشآم، وقد زيدَ ... ت جلالاً بيوسف وجَمالا

هى أسُّ الفخار، مَنْ نال أعلا ... هَا تَعالى فخامةً وتغالي

ومحلُّ العلاء، مَن حلَّ فيها ... تاه كبْراً وعزَّةً وجلالا

مَن حَوَاهَا ملكاً ملك الأرْ ... ضَ اقتساراً، سهولةً وجبالا

فافْتَرِعْها مهنَّأً بمحلّ ... سَمَك الأنجمَ الوضاء، وطالا»[1]

كما هنأ أيضا القاضى «محيى الدين بن زكى الدين»[2] السلطان صلاح الدين بقصيدة بائية، ويشره فى أحد أبياتها بفتح القدس، فقال:

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن الملقب محيى الدين المعروف بابن زكي الدين : ولد بدمشق في عام ٥٥٠ هـ/ ١١٦٠ م ، وكانت له لدى السلطان صلاح الدين منزلة عالية ، و لهذا لما ملك حلب في عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م عهد إليه بولاية القضاء فيها ، فأقام في القضاء بها لمدة ثم ستناب القاضي زين الدين أبا البيان بن البانياسي ، وعاد إلي دمشق وتولي القضاء بدمشق في ربيع الأول عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، وتوفي بدمشق في شعبان ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ؛المقريزي : المقفى ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

و«فتحكم حلبا بالسيف»[١] فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

وتحققت بالفعل هذه البشرى بعد سنوات قلائل، حيث فتح السلطان صلاح الدين القدس فى رجب عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وقد علق كثير من المؤرخين على تحقق هذه البشارة، فاعتبرها العماد الأصفهانى «نكته»، وذكرها البعض الآخر على سبيل الاتفاقات الحسنة والعجيبة[٢].

وقد بحث ابن أبى طى فى أصل هذا الموضوع[٣]، **وتحدث فى ذلك مع جماعة من أهل حلب، ومن بينهم «الركن بن جهبل العدل»، الذى اخبره بمعلومات مهمة انفرد بها فقال:** «وحدثنى جماعة (من الحلبيين)[٤] منهم: «الركن بن جهبل {العمل}[٥]»، (قال)[٦]: (كان)[٧] الفقيه «مجد الدين (طاهر بن نصر الله)[٨] ابن جهبل الشافعى الحلبي»[٩]،

---

(١) وفي رواية أخرى : « وفتحك القلعة الشهباء » . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ ؛ المقريزي : المقفى ، ج ٦ ، ص ٣٤٣) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٦١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٧٥ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٣) وردت رواية ابن أبي طي في كتاب الروضتين لأبي شامة ، والمقفى للمقريزي ، وسوف نعرض نص روايته كما أوردها كل منهم ، مع الإشارة إلي الأختلافات بينهما .

(٤) إضافة في رواية أبو شامة (الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٦) .

(٥) في طبعة : « دار الجيل » . « العدل » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٥) ، وكذلك في الرواية التي أوردها المقريزي عن ابن أبي طي . (المقفى ، ج ٦ ، ص ٣٤٣) .

(٦) إضافة في رواية أبو شامة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٦ (طبعة دار الكتب)) .

(٧) في رواية المقريزي « إن » (المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٣) .

(٨) إضافة في رواية المقريزي (المصدر نفسه والصفحة) .

(٩) هو طاهر بن نصر الله بن جَهبل ، مجد الدين الحلبي : كان إماما فاضلا في الفقه و الحساب و الفرائض ، سمع الحديث وحدث ، و صنف للملك العادل نور الدين محمود كتابا في فضل الجهاد ، درس بحلب بالمدرسة النورية ، وهو أول من درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس ، وهو والد بني

(قد)[١] وقع إليه تفسير القرآن «لأبى الحكم المغربي»[٢]، فوجد فيه عند قوله تعالى «آلم، غُلِبَتْ الرّومُ»[٣] الآية، (أن أبا الحكم قال)[٤]: إن الروم يُغْلبون فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويُفتح البيْت المقدَّس ويصير دارا للإسلام إلى أخر الأبد، و استدل على ذلك بأشياء ذكرها فى كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، و (يعين فيه)[٥] الزّمان الذى يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه «عيسى الهكاري» فلمّا وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرْضها على السلطان (وحدّث)[٦] بما فى الورقة (لمحيى الدين بن زكي)[٧] الدّين (القاضي)[٨] الدمشقى، وكان (ابن زكى)[٩] الدّين واثقا بعقل ابن جهبل وأنّه لا يُقدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب فى صفر وقال فيها:

وفـتْحِكُم حلبـاً بالسّيف فى صـفر قـضى لكـم بافتـتاح القـدس فى رجـب

جهبل الفقهاء الدمشقيين، مات بالقدس عام ٥٩٦ هـ/ ٩٩ ـ ١٢٠٠ م عن أربع وستين عام. (الذهبي: العبر، ج ٣، ص ١١٥؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٦؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٤).

(١) إضافة في رواية أبو شامة. (الروضتين، ج ٢، ق١، ص ١٤٦).

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الإفريقي الصوفي المعروف بابن البَرّجَان: كان عارفا بالقراءات و الحديث، والتحقيق بعلم الكلام، والتصوف، من مؤلفاته: «تفسير القرآن» ولم يكمل، و «شرح الأسماء الحسنى»، وقد أخذ عليه الإمعان في علم الحرف الذي استعمله في تفسير القرآن، توفي في «مراكش» عام ٥٣٦ هـ/ ٤١ ـ ١١٤٢ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج ٤، ١٣ ـ ١٤).

(٣) سورة الروم، أية ١، ٢. (المقريزي: المقفي، ج ٦، ص ٣٤٣).

(٤) إضافة في رواية أبو شامة. (الروضتين، ج ٢، ق١، ص ١٤٦).

(٥) في رواية المقريزي «عين فيها». (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٤).

(٦) في رواية المقريزي «أعلم». (المصدر نفسه و الصفحة).

(٧) في رواية المقريزي «محيى الدين محمد بن الزكي». (المصدر نفسه و الصفحة).

(٨) إضافة في رواية أبو شامة. (الروضتين، ج ٢، ق١، ص ١٤٦).

(٩) (١٠) في رواية المقريزي «ابن الزكي». (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٤).

و لما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته، ثم حين فتح البيت المقدس خرج (إليه)[١] المجد بن جهبل (إلى خدمته)[٢] مهنّئا له بفتحه، وحدثه حديث الورقة، فتعجّب السلطان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلك محيى الدين بن زكى الدين، غير أنّى أجعل لك حظاً لا يزاحمك فيه أحد، ثم جمع له مَن (هناك)[٣] (فى المعسكر)[٤] من الفقهاء وأهل الدين ثم أدخله إلى القدس[٥]، و الفرنج بعد ما خرجوا منه، وأمره أن يذكر درساً من الفقه على الصّخرة فدخل وذكر درساً هناك وحظى بما لم يحظ به غيره[٦]»[٧].

واهتم بهذا الموضوع بعد ابن أبى طى بعض المؤرخين، ومنهم «أبو شامة» و «ابن خلكان»، وقد حرصا على قراءة تفسير «أبو الحكم ابن برجان»، وأوضح أبو شامة أنه وضع هذا التفسير فى عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م[٨]، وذلك بعد أن قام بعمل حساب طويل حتى خرج بهذا التفسير من آية «بضع سنين»[٩].

سيطرة صلاح الدين على حارم:

حرص السلطان صلاح الدين بعد ملكه فحلب على ضم حصن حارم لأملاك الدولة الأيوبية فى الشام، ولهذا راسل الوالى به وطلب منه التنازل عنه فى مقابل تعويضه عنه

---

(١) إضافة في رواية أبو شامة . (الروضتين ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٤٧) .

(٢) إضافة في رواية المقريزي (المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٤) .

(٣) إضافة في رواية المقريزي (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) إضافة في رواية أبو شامة . (المصدر السابق ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٤٧) .

(٥) انتهى هنا نص ابن أبي طي الذي أورده المقريزي (المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٣-٣٤٤)

(٦) أورد ابن كثير ملخصا لكتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٤٤ - ٨٤٥) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٤٦-١٤٧ .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٣٥٧-٣٥٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٩) سورة الروم ، أية ٣ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٣٠) .

بمناطق أخرى، فرفض الوالى عرضه، ولكن لم يوافقه فى ذلك كبار الأجناد فى حارم ، فقاموا بالقبض على الوالى، وأعلنوا طاعتهم للسلطان صلاح الدين. وقد عرض العماد الأصفهانى و ابن الأثير وغيرهم من المؤرخين هذا الموضوع بتلخيص شديد لا يتجاوز بضعة أسطر[1]، بينما أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل كثيرة له تناول فيها معظم الآراء التى قيلت حوله.

قال ابن أبى طى: «كاتب الوالى بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مُطمعا لهم فى الاستيلاء على حارم، بشرط أن يعصموه من الملك الناصر. وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه، فتآمروا بينهم فى القبض عليه. وكان هذا الوالى ينزل من القلعة و يصعد إليها فى أموره ولذّاته ؛ فاتّفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لمّا خرج، وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان. وكان السلطان راسل والى حارم وبذل له فى تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها: ولاية بصرى، وضيعة فى دمشق يملّكه إياها، ودار العقيقى التى كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمّام العقيقى بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار. فاشتطَّ فى السَّوْم، وتغالى فى العوض ؛ فأنفذ إليه السلطان وتوعده، وتهدّده فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم. وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان و يتحصَّل منه شيئا، فكاتب على الوالى، فكتب إليه السلطان بتميم ذلك، ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب فى وجه الوالى.

وقيل إن النقيب وأهل القلعة لمّا أغلقوا الباب فى وجهه شنَّعوا عليه بمكاتبة الفرنج ولم يكن فعل ذلك، إقامة لعُذرهم، وقذفوه بالحجارة و نادَوْا بشعار السلطان. ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ «تقى الدين» إلى حارم ليتسلّمها، فامتنع النَّقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدة. فلمّا أشرف عليها نزل إليه النَّقيب

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٦٣ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٠ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٠ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٨٥

ووجوه القَلعيين، وسلموها إليه فى «تاسع عشر»[١] صفر.

ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان «بدر الدين حسن بن الداية» حاضرا، فقال للسلطان: يا مولانا لا تلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالى وكذبوا عليه، حتى فوَّتُوه ما كان السلطان وعده به ؛ وما قُلتُ هذا إلا عن تجربة، فإننى لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى عَلَى من كذبهم فى حقى وتحرُضهم على أمور كِدْت بها أهلك مع نور الدين ؛ وهم كانوا سبب خروجى من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يُقَرَهم فى القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به، وأفْضل عليهم، وولى فى القلعة غيرهم وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نَفِ بما نَعدُ ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين»[٢].

ثم عاد السلطان صلاح الدين إلى حلب، وقام بتنظيم الإدارة بها. وقد أمدنا العماد الأصفهانى بأسماء معظم ولاة الأمور فيها، فذكر تعيين الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين واليا عليها، كما أورد أسماء ولاة القلعة والديوان والقضاء[٣]. **واتفق ابن أبى طى مع العماد الأصفهانى فيما ذكره عن ولاة الأمور فى حلب، كما أضاف بعض التفاصيل الأخرى عن الملك الظاهر وتقدير النفقة التى أقرها له والده، وأسماء باقى ولاة الأمور فى حلب.**

قال ابن أبى طى: «وعاد **(السلطان صلاح الدين)** إلى حلب فى ثالث ربيع الأول فرتبها، وقرر ولده «الظاهر» سلطانا بها، وقرر له فى كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين

---

(١) لم يكن ابن أبي طي دقيقا في كتابة هذا التاريخ، حيث كان السلطان صلاح الدين تسلم حارم. كما ذكر ابن شداد - في التاسع والعشرين من شهر صفر. ونرجح أن هذا الخطأ الذي وقع فيه ابن أبي طي حدث سهوا أثناء الكتابة، حيث ذكر ابن أبي طي بعد ذلك أن صلاح الدين ظل في حارم لمدة ليلتين، وأنه عاد إلى حلب في الثالث من ربيع الأول، وهذا يوضح أنه كان مدركا أن ملك صلاح الدين حارم كان في آخر صفر. (ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٦٠ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٥٠).

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٨. وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١ - ٧٢.

كمة وقباء وما يحتاج إليه من الطعام و غيره، وجعل معه واليا «سيف الدين أزكش الأسدى»[١]، وولى «حسام الدين تميرك الخليفتي» شحنة حلب، وولى الديوان «ناصح الدين إسماعيل بن العميد الدمشقي» ودار الضرب، فضرب الدرهم الناصرى الذى سكته خاتم سليمان، و نقل الخطابة من «بنى العديم»[٢] إلى «أبى البركات بن الخطيب هاشم» بسفارة القاضى الفاضل ؛ وولى القضاء «لمحيى الدين ابن زكى الدين «الدمشقى، فاستناب فيه ابن عمته» أبا البيان نبأ بن البانياسي»[٣] وولى الجامع والوقوف «لأبى على بن العجمي»[٤].

ولم تستمر ولاية الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين لحلب سوى ستة أشهر، حيث قرر صلاح الدين تعيين أخيه الملك العادل فى ولاية حلب. وقد ذكر العماد الأصفهانى أن صلاح الدين اتخذ هذا القرار استجابة لرغبة الملك العادل، الذى كان قد راسله وطلب منه ولاية حلب، فوافق صلاح الدين، وطلب منه مغادرة مصر فترك الملك العادل نيابته لمصر وخرج إلى الشام ومعه أسرته وأمواله، وولاه صلاح لدين حلب فى رمضان عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م[٥].

---

(١) هو سيف الدين يازكج الأسدي : من أمراء السلطان صلاح الدين ، كان مشاركا معه أثناء حصار قلعة عزاز في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ، وقام بحماية السلطان من هجمات الإسماعيلية . استمرت ولايته لقلعة حلب بضعة أشهر ، ثم عزل منها عند تولي الملك العادل حلب في رمضان عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ٧٥) .

(٢) كان « أبو المعالي بن العديم » عم المؤرخ ابن العديم آخر من تولي الخطابة من بني العديم ، وهم كانوا علي المذهب الحنفي ، وأوضح ابن العديم أن نقل الخطابة إلي المذهب الشافعي تم بيعاز من الفقيه « عيسى الهكاري » الذي كان متعصبا للمذهب الشافعي . (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧١) .

(٣) هو زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي : ظل نائبا عن محيى الدين بن زكي الدين في قضاء حلب حتى عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م . (المصدر نفسه ، ص ١٣٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٥٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٦٤ ؛ ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

وقد اهتم ابن أبى طى فى روايته عن ولاية الملك العادل حلب ببحث الأسباب التى دفعت السلطان صلاح الدين إلى تعيين أخيه بدلا من ابنه الملك الظاهر، وقد تحدث ابن أبى طى فى ذلك مع كثير من الأشخاص المعاصرين لتلك الأحداث، وذكر من بينهم: «جمال الدين قاضى اليمن»، و«والده أبو طى النجار»، و«علم الدين قيصر الصلاحي»، فأكد له قاضى اليمن، ووالده، أن السلطان صلاح الدين كان بحاجة إلى وجود الملك العادل بالقرب منه لأنه كان يهتم برأيه كثيرا، ويحتاج إلى مشورته، ولكن بقاء العادل فى مصر كان يؤخر وصول رده على رسائله لبعد المسافة بين مصر والشام. وقد عرضنا من قبل أثناء ذكر كتابات ابن أبى طى عن الدولة الأيوبية فى مصر رواية ابن أبى طى التى توضح هذا الرأى، ولا داعى لتكرار نص روايته مرة أخرى[١].

ثم تطرق ابن أبى طى بعد ذلك إلى توضيح الآراء التى قيلت حول توقيت اتخاذ صلاح الدين قراره بولاية العادل حلب، فقال: «وحدثنى أبى..... ولما حصل العادل عند السلطان وقع فى نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر ثم حار فى ولاية يوليه إياها. ثم قال: وحدثنى «علم الدين قيصر الصَّلاحي» قال: إنما أقْدَم السلطان العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، و لهذا {أخرج}[٢] العادل بأمواله وعياله وأثقاله»[٣].

ومن الآراء الأخرى التى قيلت حول أسباب ولاية الملك العادل حلب، رأيا ذكره المؤرخ «ابن العديم»، أوضح فيه أن حاجة السلطان صلاح الدين لأموال العادل كانت وراء قرار تعيينه فى ولاية حلب، وان العادل دفع فى مقابل ذلك ثلاثمائة ألف دينار مصرية، ولكن «العماد الأصفهاني» ذكر ما يشكك فى صحة هذا الرأى، حيث أوضح أن الملك العادل كان أثناء نيابته فى مصر يمد السلطان صلاح الدين بحاجته من المال والرجال والأرزاق[٤]، ولذلك أصبح ربط ولاية العادل حلب بحاجة صلاح الدين إلى أمواله أمرا مستبعدا لأنه

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) في طبعة : « دار الجيل » . « خرج » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ (طبعة دار الكتب) .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

يحصل عليه بالفعل عند حاجته إليه.

وقد أوضح ابن أبى طى حقيقة ما قيل حول هذا الرأى، فقال: «وحدثنى غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلا وقال: أريد أن تقرضنى مائة وخمسين ألف دينار إلى الميُسور ؛ فقال: السمع والطاعة. ثم قام وخرج من عنده وكتب إليه يقول: أموالى جميعها بين يديك، وأنا مملوكك، وأشتهى أن أحمل هذا المال إلى خدمة السلطان، ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها. فأجابه السلطان: إننى والله ما أقْدَمتُك إلا لأوليك حلب ؛ وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ما عندى.

فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتُب له بمدينة حلب كتابا، ويجعله ككتاب البيع و الشراء فامتنع السلطان، و قال: إنما تكون حلب إقطاعا،و المال على له. فاعتذر العادل إلى السلطان. ولما اجتمعا قال له السلطان:أظَنَنْتَ أن البلاد تباع ! أوَ مَا علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزانة للمسلمين ورُعاةٌ للدين، و حرّاس لأموالهم ! أوَمَا علمت أن السلطان«ملك شاه السلجوقي»[1] لما وقف«طبرية»على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاء ولا من الفقهاء. ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى رَعْبَان إلى الفرات إلى حماة وكتب له التوقيع، وقرر عليه مالا يحمله برسم{الزّردخاناة}[2] وخزانة الجهاد،ورجالة من الحلبيين»[3].

---

(١) هو جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه محمد بن السلطان ألب أرسلان بن سلجوق : ولد في جمادى الأولى عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٨٤ م ، تولي السلطنة بعد وفاة والده في ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م . كان من أكثر الملوك عدلا ، ولهذا كان يعرف بالسلطان العادل ، ولذا لا نستبعد ما رواه عنه ابن أبي طي ، وتوفي ملكشاه في شوال ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م . (العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٤٧، ٥٠ ، ٧٠ (اختصار البنداري) ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢، ص ١٠٦) .

(٢) في « طبعة دار الجيل »:« الزردخانات » (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) . والمقصود بها خزانة السلاح . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١١) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٨ (طبعة دار الكتب) .

وهكذا استقر الملك العادل فى ولاية حلب، أما بالنسبة لموقف الملك الظاهر بعد عزله منها، فقد ذكر المؤرخ «ابن شداد» أنه: «أقام فى خدمة أبيه لا يظهر له إلا الطاعة و الانقياد مع انكسار فى باطنه لا يخفى عن نظر والده»[١].

وقد أكد ذلك أيضا ابن أبى طى، كما أضاف بعض التفاصيل الأخرى التى توضح أسباب ضيق الملك الظاهر من قرار عزله من ولاية حلب، فقال: «ورحل السلطان إلى دمشق واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما {حضره}[٢] أمره بالعود إلى حلب و تسليمها إلى عمه العادل ففعل، وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقيا «بالرَّسْتَن» وباتا فيه. فكانت ولاية الظاهر بحلب فى هذه النوبة، نحو ستة أشهر. ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده و التقرُّب إليه، إلا أن الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظُهر شيئا إلا الطاعة لوالده، و {الانقباض}[٣] إلى مرضاته.

ثم قال: حدثنى «أبي» عن «مجد الدين بن الخشاب» قال: حدثنى الملك الظاهر قال: لما بلغنى أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى على ما قدُم وما حَدَث، وأصابنى من الهم ما لم أقدر على النهوض به، ووَددْتُ أنى لم أكن رأيتها ولا دخلت إليها، لأن قلبى أحبَّها وقبلها، وطاب لى هواؤها ؛ ولما فارقتُها كنتُ أحنُ إليها وأشتاقها»[٤].

وبعد استقرار الملك العادل فى حلب قام باختيار من يعاونه فى إدارتها، وقد أمدنا ابن أبى طى بأسماء بعض ولاة الأمور بها، فقال: «ودخل العادل حلب فى رمضان، وخلع على المقدَّمين و الأعيان. وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف «بالصّنيَعة» لتسلُّم حلب وقلعتها من الملك الظاهر، وولَّى القلعة «صارم الدين بزغش» ؛ و ولَّى الديوان والإقطاعات

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٦٤ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ؛ ابن كثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٤٦ .

(٢) في « طبعة دار الجيل » : « حضره » (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) .

(٣) في « طبعة دار الجيل » : « الانقياد » (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ (طبعة دار الكتب) .

«شجاع الدين بن البيضاوي»[١] صبّاغ ذقنه ؛ وولّى الإنشاء وما يتعلق بأمر السر «للصَّنيعة ابن النَّحّال»،وكان نصرانيا ثم أسلم على يد العادل[٢]

فولى «ابن النحال» الوظائف لجماعة من النَّصارى. وفى ذلك يقول الشاعر:

فـــاق ديـــنُ المـــسيح فى دولـــة العـــا ... دل، حتـــى عـــلا عـــلى الأديـــان

ذا أمـــــير وذا وزيـــــر، وذا وا ... ل، وذا مُـــشرف عـــلى الـــديوان»[٣]

ولم يقتصر دور الملك العادل على تدبير أمور حلب، بل أظهرت رواية ابن أبى طى أنه كان يشارك أخاه السلطان صلاح الدين الرأى فى كثير من الأمور، وقد قام بذلك بعد فترة وجيزة من ولايته، حيث انتقل إلى أخيه السلطان صلاح الدين فى دمشق، فى آخر ذى القعدة عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م، وحضر معه اجتماعاته مع وفود رسل العديد من الدول والإمارات.

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل حضور الملك العادل هذه الاجتماعات، وكان «العماد الأصفهاني» قد أشار إلى حضور العادل عند ذكره وصول رسول أمير حصن كيفا «نور الدين بن قرا أرسلان»، حيث أورد أن صلاح الدين طلب من العادل الإقامة معه لإيناسه[٤]، كما ذكر ابن العديم وصول العادل إلى دمشق، ولم يوضح أسباب حضوره، وذكر أنه ظل هناك حتى انتهاء عيد الأضحى[٥].

---

(١) هو شجاع الدين محمد بن بزغش البصراوي : ولاه العادل أيضا « الجند ، و ستهداء الأموال ، وشحنكية البلد . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٥) .

(٢) اتفقت رواية ابن العديم عن ولاة الأمور في حلب مع ما ذكره ابن أبي طي . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٥) المصدر السابق ،ج ٣ ، ص ٧٨. وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ،ج٢ ، ص ١٥٦ .

وكان السلطان صلاح الدين قد اجتمع فى ذلك الوقت مع رسل عدة دول و إمارات، وذكر منهم العماد الأصفهانى رسل الخلافة العباسية، ورسل ملك الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وأوضح المحاولة التى قام بها رسل الخلافة لعقد الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود، ولكن باءت جهودهم بالفشل[١] كما أورد أيضا وصول رسول «عماد الدين زنكي» أمير سنجار[٢].

وقد أشار ابن أبى طى إلى هؤلاء الرسل، وانفرد بذكر وصول رسل العديد من البلاد الأخرى، فقال: «ولم يزل الملك العادل يُهذب أمور حلب إلى سادس عشرى ذى

القعدة، ثم خرج متوجها إلى دمشق، بسبب أن السلطان اجتمع عنده فى ذى القعدة عدة رُسل منهم: رُسُل الخليفة، ورُسُل «طغرل بن البهلوان»[٣] ورُسُل «قزل أخى البهلوان»[٤]، ورُسُل «شاه أرمن»[٥] صاحب خلاط ، ورُسُل المواصلة، ورُسُل «عماد الدين» صاحب سنجار، ورُسُل «قليج أرسلان» صاحب الشمال. فأراد السلطان إحضار العادل لسماع الرسائل ولحضور الأجوبة عنها ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل إلى دمشق أحضره السلطان لسماع الرسائل، وسمع ما عنده فى الأجوبة. ولما قضى أجوبة

---

(١) وصل من جهة الخليفة العباسي الناصر لدين الله : شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، وبشير الخادم ، ومن الموصل القاضي محيى الدين بن الشهرزوري ، والقاضي بهاء الدين بن شداد . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٦ ـ ٧٧) .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) هو الأتابك شمس الدين محمد بن البهلوان بن إيلدكز : حاكم أذربيجان وهمذان و بلاد الجبل ، توفي في عام ٥٨١ هـ/ ٨٥ ـ ١١٨٦ م . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦٥ ، ١٦٩ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ٢٦٩) .

(٤) خلف أخاه شمس الدين بن البهلوان في ولاية أملاكه بعد وفاته في عام ٥٨١ هـ/ ٨٥ ـ ١١٨٦ م . (العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ٢٦٩)) .

(٥) توفي في ربيع الآخر عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦٨) .

الرسل ودع السلطان وعاد إلى حلب»[1].

وقد كانت رواية ابن أبى طى عن حضور الملك العادل اجتماعات السلطان صلاح الدين فى دمشق آخر ما وصلنا من كتاباته عن أحوال الدولة الأيوبية فى الشام فى عام ٥٧٩ هـ / ٨٣ ـ ١١٨٤ م. وكان هذا العام من الأعوام المهمة فى تاريخ الدولة الأيوبية حيث واصل فيه السلطان صلاح الدين توسعاته فى بلاد الجزيرة، فملك مدينة «آمد» فى بداية هذا العام، ثم اتجه نحو حلب، فملك «تل خالد»، وقد كانت كتابات العماد الأصفهانى عن هذه الفتوحات أساسا مهما اعتمد عليه ابن أبى طى عند كتاباته لهذه الأحداث.

ثم بسط السلطان صلاح الدين سيطرته على مدينة حلب فى منتصف صفر من السنة وانفرد ابن أبى طى بمعظم تفاصيل ملكه لها، والإجراءات الإدارية التى أقامها فيها ومن ذلك إسناد ولايتها إلى ابنه الملك الظاهر، ثم عزله منها بعد ستة أشهر، و إسناد ولايتها لأخيه الملك العادل.

كما ملك أيضا السلطان صلاح الدين حصن حارم فى آخر صفر فى هذا العام، وانفرد ابن أبى طى أيضا بمعظم تفاصيل ملكه له.

وقد كانت كتابات ابن أبى طى عن أحداث هذا العام أساسا لبعض المؤرخين اللاحقين به، فقد لاحظنا اتفاق المؤرخ ابن العديم معه فى بعض أحداث ملك السلطان صلاح الدين حلب، كما لاحظنا أيضا اتفاق المؤرخ ابن كثير معه فى بعض أحداث ملك صلاح الدين آمد وحلب.

وتبقى لدينا من كتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأيوبية فى الشام فى عهد السلطان صلاح الدين حادثتان، تناول فيهما بعض الرؤى التى تنبئ ببطولة السلطان صلاح الدين، وانتصاراته العظيمة على الصليبيين، وقد اهتم كثير من المؤرخين بذكر مثل هذه

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

الرؤى على سبيل الفأل الحسن.

وكانت الرؤية الأولى التى ذكرها تنبئ بانتصار السلطان صلاح الدين فى موقعة حطين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وقد أورد ابن أبى طى هذه الرؤية عن والده، فقال: «حدّثنى والدى {حميد النجار}[١]{عن أحد التجار}[٢] قال: كنت بالموصل فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرت الشيخ عمر الملاّ فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ، رأيت البارحة فى النوم كأنى بأرض غريبة لا أعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكان رجلا بيده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه ؛ فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم ؟ هذا المهدى ؟ قال: لا فقلت: من هذا ؟ قال هذا «يوسف». ما زادنى على ذلك. قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا و قالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له «يوسف» ؛ و حدست الجماعة أنه «يوسف بن عبد المؤمن» صاحب المغرب، و كان «المستنجد بالله» قد ولى الخلافة تلك السنة، فحدس بعض الجماعة عليه. قال: وأنسيتُ هذه الوقعة. فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله»[٣].

أما الرؤية الثانية فقد حدثت ابن أبى طى بها إحدى النساء فى حلب، وكانت على صلة بأخت السلطان صلاح الدين، فقال: «وحدثتنى «ظئرلي»[٤] من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أَتَيَتْ فى نومها وهى حامل بالسلطان فقيل لها إن فى بطنك سيفا من سيوف الله تعالي»[٥].

---

(١) إضافة في طبعة دار الكتب . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧) .

(٢) ساقطة من طبعة دار الكتب . (المصدر نفسه و الصفحة ؛ طبعة دار الجيل ، ج ٢ ، ص ٨٥) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧ .

(٤) الظئر في اللغة : المُرضعة غير ولدها . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٢٤٥) ، ولا ندري أن كان ابن أبي طي قصد معناها اللغوي ، أم كان هذا اسم السيدة التي تحدث معها ، والأقرب أنه اسم هذه السيدة ، لأنه لو قصد معناها اللغوي لكان ذكر ظئر من نساء الحلبيين فقط .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧ .

وقد تحققت هذه الرؤية وصار السلطان صلاح الدين بطلا عظيما، وسطرت بطولاته فى انتصاراته على الصليبيين فى موقعة حطين وغيرها من المعارك فى سجل التاريخ، ولهذا اهتم ابن أبى طى به وأرخ باسمه كتابا سجل فيه سيرته، بدأها بتتبع جذور عائلته ونشأتها وعلاقاتها مع الدولة الأتابكية، ثم أوضح تطور أحوال السلطان صلاح الدين منذ اشتراكه فى حملات عمه أسد الدين شيركوه على مصر فى آخر عشر سنوات من حكم الخلافة الفاطمية، حتى تأسيسه الدولة الأيوبية ثم تناول أهم الانتصارات التى حققها فى سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية.

وقد كانت هذه الأحداث آخر ما وجدناه من صفحات هذا الكتاب، ولعلنا نكون قد أظهرنا هذه الصفحات بصورة توضح جهد ومكانة المؤرخ ابن أبى طى الحلبى بين المؤرخين المعاصرين له فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى.

ووصلنا أيضا من كتابات ابن أبى طى عن عهد السلطان صلاح الدين، معلومة أخرى عن أحداث عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م، وهى لا تتعلق مباشرة بالسلطان صلاح الدين، وإنما بإمارة أنطاكية الصليبية فى ذلك الوقت.

وقد أمدنا بها المؤرخ «عز الدين بن شداد» عن ابن أبى طى، فقال: «فرأيت فى تاريخ ابن أبى طى: «وفى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة مات «صاحب انطاكية»، وأوصى إلى ابن أخته «ريمند»[1].

وقد بحثنا فى مدى صحة ما أورده عز الدين بن شداد عن ابن أبى طى، ووجدنا أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة، حيث ظل الأمير «بوهيمند الثالث» فى حكم إمارة أنطاكية منذ عام ١١٦٣ م/ ٥٥٨ هـ حتى عام ١٢٠١ م/ ٥٩٧ هـ[2]، وإنما الذى توفى فى ذلك العام هو «ابن لاون» ملك الأرمن، وأوصى لابن أخيه من بعده، وكان بهاء الدين بن

(١) الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٣٩٨.

(٢) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٥٢٦.

شداد قد أورد عند ذكره لحادثة استدعاء صلاح الدين القوات الإسلامية من مختلف البلاد التابعة له لغزو حصن الكرك فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، أن القوات الحلبية تأخرت عليه: «بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض أنطاكية من بلاد «ابن لاون»، وذلك أنه كان قد مات، ووصى لابن أخيه الملعون بالملك»(١)، ولعل ابن أبى طى اختلط عليه الأمر بسبب ذكر أنطاكية فى الحادثة.

ثانيا – كتابات ابن أبى طى عن عهد الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين:

تولى الملك الظاهر حلب منذ عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حتى وفاته فى جمادى الآخرة عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م، وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن عهده موضوعان، تعلق الأول بالتاريخ السياسى الخارجى لحلب، وتناول فيه علاقة حلب مع إمارة أنطاكية الصليبية، أما الموضوع الثانى فتناول فيه جانبا من تاريخ حلب الاقتصادى فى عهده.

١ – علاقة حلب مع إمارة أنطاكية:

اتسمت العلاقات الخارجية بين حلب وإمارة أنطاكية بالعداء منذ قيام الإمارة فى العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، وقد عرضنا جانبا من سجل الصراع بينهما من خلال كتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأتابكية، وبعد مرور قرن من الصراع بينهما، بدأت العلاقات بينهما تأخذ شكلا آخر، وأصبح الملك الظاهر فى حلب يساند الأمير بوهيمند الرابع (١٢٠١ - ١٢١٦ م / ٥٩٧ - ٦١٣ هـ) ضد أعدائه من الأرمن، وقد أمدنا ابن أبى طى برواية توضح هذا التحول المهم فى العلاقة بينهما، وقبل عرض نص روايته نقدم نبذة عن أسباب تغير العلاقة بين حلب وأنطاكية.

ويرجع سبب ذلك إلى حاجة إمارة أنطاكية إلى المساعدة من أى قوى فى صراعها مع

(١) النوادر ص ٧٤ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

الأرمن، خاصة بعد أن يئست من وصول المساعدات العسكرية من أوربا، بسبب تغيير استراتيجية الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى، السابع الهجرى، عما كانت عليه فى القرن الماضى، فبينما كانت الأهداف الفكرية والعسكرية للحملة الصليبية الأولى تهدف للوصول إلى بيت المقدس، أصبحت الأهداف تتركز فى غزو مصر، أما الملك الظاهر فقد هدف من مساعدته لأنطاكية إبعاد خطر الأرمن عن أنطاكية، خشية أن يزداد خطره بعد ذلك على حلب باستيلائه على أنطاكية[١].

وقد تناول ابن أبى طى فى روايته مثالا على التحالف بين حلب وأنطاكية فى صراعها مع الأرمن فى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م، واتفق ابن واصل مع ابن أبى طى اتفاقا كبيرا فيما رواه من تفاصيل الخبر[٢]، قال ابن أبى طى: «فى سابع عشر ربيع الآخر هجم «ابن لاون» أنطاكية، فلم يشعر صاحبها إلا وهو على بابها، فارتاع لذلك، وقاتله فى البلد، ثم التجأ إلى القلعة، وصاح بشعار الملك الظاهر بن الملك الناصر، فكتب والى حارم على جناح طائر إلى الملك الظاهر، فخرج بعساكره لنجدة البرنس، فلما وصل إلى حارم بلغ ابن لاون مسيره فخرج عن أنطاكية وترك فيها رجالا فقتلوا، وكتب الملك الظاهر لصاحبها بما يطيب به قلبه»[٣].

٢ – تاريخ حلب الاقتصادى:

اهتم ابن أبى طى فى كتابه الذى خصصه لدراسة تاريخ حلب وهو بعنوان «عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر»، فضلا عن دراسة تاريخها السياسى، بدراسة تاريخها الاقتصادى أيضا، وقد حفظ ابن شداد من هذا الكتاب نصا مهما أورده عن ابن أبى طى، وفيه انفرد ابن أبى طى بتحديد ميزانية دخل حلب فى عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ ـ ١٢١٣ م،

(١) حسين عطية : المرجع السابق ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ٢٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

واعتمد فى ذلك على «سجلات رسمية» وفرتها له علاقته مع «مستوفي»[١] حلب، وهذه الرواية من الروايات المهمة التى تشير إلى علاقات ابن أبى طى بموظفى الإدارة فى حلب.

قال ابن أبى طى: «حدثنى «كريم الدولة بن شرارة النصراني»، وكان مستوفى دار حلب يومئذ، أنه عمل ارتفاع حلب سنة تسع وستمائة فى الأيام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها، والضياع، والأعمال، فكان مبلغه ستة آلاف ألف، وتسعمائة ألف، وأربعة وثمانين ألف، وخمسمائة درهم»[٢].

وبهذا النص انتهينا من جمع وتحليل كتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأيوبية فى بلاد الشام فى عهد السلطان صلاح الدين، وعهد الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين.

---

(١) المستوفي : هو الذي يضبط الديوان ، وينبه علي ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) .

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٧ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٤٦ ؛ نزهة النواظر ، ص ١٤٤ ؛ الغزي : نهر الذهب ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .